العراق عام في المنطقة الحمراء

٣

كشف حساب

obeikan.com

obeikan.com

إطلالة أولية

في كل الأحاديث والحوارات العديدة التي جمعتني في عمان والقاهرة ودمشق منذ عام ٢٠٠٦ وحتى عام ٢٠١٠ ، مع (مختار لماني) سفير الجامعة العربية في بغداد(نيسان/ ابريل ٢٠٠٦-شباط / فبراير٢٠٠٧)، كنت احرص على أن يقدم الرجل (كشف حساب للسنة التي قضاها في العراق)، وكان لابد أن احفز ذاكرته لكي تستحضر صور الأحداث التي عاشها في العراق بكل تفاصيلها المؤلمة وبكل دلالاتها الحقيقية ،وكان هاجسي الصحفي يحركني في كل مرة التقية بها ، لإثارة العديد من المواضيع التي تتعلق بواقع العراق والعراقيين وهم يعيشون محنتهم الكبيرة في ظل الاحتلال،والكيفية التي يمكن للعراق أن يخرج بأهله من نفق مظلم مازال يتخبط فيه منذ سنوات، لكن السفير (مختار لماني) ومنذ أول لقاء بيننا أثرت فيه كل هذه المواضيع، وجدته يبادرني بسؤال:لماذا لا تسألني أولا عن علاقتي بالعراق.. ولماذا العراق؟، ثم راح يفسر :إن إجابتي على هذه الأسئلة ستوضح حقيقة رؤيتي للمهمة التي كلفتني بها الجامعة العربية إزاء العراق،وشكل وطبيعة خطواتي هناك. والحقيقة أنها فسرت فيما بعد حتى الأسباب التي تقف وراء انسحابه من المهمة بعد نحو عام .

كان جواب السفير مختار لماني على الأسئلة التي استعرتها منه:علاقتي مع العراق لم تبدأ في عام ١٩٩١ عندما زرته أول مرة ،أنها تعود إلى طفولتي بالمغرب في المدارس الابتدائية، كانوا يدرسوننا باللغة الفرنسية وأول درس تعلمناه في التأريخ كان بلاد مابين النهرين، وفهمت آنذاك لماذا كان أول درس عن العراق ، لان من

أرضه خرجت كل الإنسانية ومنه بدأت عجلة الحياة والتقدم تدور وتتحرك . في عام ١٩٩١ وبعد نهاية حرب الخليج الثانية ،كنت على راس وفد الجامعة العربية الذي ذهب إلى بغداد للمساعدة في حل موضوع «الأسرى الكويتيين » وبمهمة تستغرق ثلاثة أيام ، ولكن طبيعة المهمة وتعقيدات الموضوع فرضت الموافقة على مقترح الحكومة العراقية بتمديد فترة بقاء الوفد في العراق ليتسنى له دراسة الموضوع بشكل جيد والتحقق من صحة أو عدم صحة وجود أسرى كويتيين لدى العراق، كان لابد(آنذاك) أن التعاون مع الصليب الأحمر في تدقيق القوائم التي حملتها معي، وهي تحتوي على أسماء ادعت الكويت بأنهم أسرى لدى العراق ،الذي سبق وان احتل الكويت في الثاني من آب/ أغسطس ١٩٩٠ وخرج منه في نهاية شهر شباط / فبراير ١٩٩١،كانت المهمة تتطلب فعلا عملا كثيرا وتحريات تحتاج إلى القيام بتنقلات في كل أنحاء العراق ،فقبل الحرب (حرب الخليج الثانية) التي بدأت ضد العراق في شهر كانون الثاني / يناير ١٩٩١،كانت الحدود الوحيدة المفتوحة مع الكويت هي حدود العراق ، لذلك فان الكثير من الناس تحركوا بعيدا عن ساحة المعركة المتوقعة أو بعيدا عن لمناطق التي يمكن أن تتعرض للقصف ، فذهبوا باتجاه أبناء عمومتهم وأهاليهم في العراق، الناس رحلوا وفق بعد عشائري ووفق علاقات نسب وتصاهر ، وقد أتاحت لي هذه المهمة بان أقيم أول علاقة في العمق مع العراق،لقد توفرت لي في تلك الزيارة أن أتنقل في كل مناطق العراق من شماله بين الموصل ولغاية ربيعة مرورا بسنجار إلى مناطق وسط العراق حيث كربلاء والنجف والى الجنوب حيث البصرة والناصرية والعمارة وغيرها من مدن العراق ومناطقه المتنوعة التي شكلت هذه الفسيفساء الجميلة، الحقيقة إني لم أجد ركنا في العراق إلا وكان يضم تاريخا جميلا وأثارا معبرة وشيء مقدس لقوم من الأقوام ، هذه الفسيفساء ببعدها الديني والطائفي والثقافي ،وهذا التمازج

الذي يجمع فيه العراق الجميع تحت مظلته الواحدة، فرض عليّ المقارنة مع دول عربية أخرى .

ففي الثمانينات(مثلا)كنت اتابع بدقة جهود الأخضر الإبراهيمي[1] في لبنان ، وهو صديق عزيز جدا ، وكان يحدثني عندما التقية عن التنافر بين الطوائف اللبنانية، وكنت أتعجب وأنا ازور بعض القرى والمناطق،وارى الكم الكبير من الطوائف العراقية والمس ذلك التعايش الرائع بين الجميع عبر التاريخ، وحتى من دون أن يشعر الناس بان تعايشهم هذا يعد أنموذجا رائعا وربما فريدا ،فكل طائفة تحتفظ بخصوصيتها وهويتها لكنها جميعا تتحرك وتنمو تحت مظلة العراق الواحد وبهوية جامعة لكل الهويات الفرعية . ما كان يؤلمني في ذلك حقا هو أن وعي العراقيين بهذا الشيء الفريد والجميل، لم يكن بالمستوى المطلوب، وقد ظهر ذلك جليا بعد الاحتلال ،حيث بدأت عمليات الإقصاء للآخر وتدمير كل شيء، وتغليب الهويات الفرعية والصغيرة على هوية المواطنة الجامعة. ولأجل أن يكمل إجابته عن علاقته بالعراق ، سالت السفير مختار لماني عن سر قبوله لمنصب سفير الجامعة العربية في العراق ورفضه نفس المنصب مع تغيير المرجعية وجعلها الأمم المتحدة،فأجابني:بعد أن انتهيت من مهمتي كسفير للمؤتمر الإسلامي في الأمم المتحدة بنيويورك، ذهبت لأمارس وظيفة أستاذ زائر في عدد من جامعات أمريكا

(1)الأخضر الإبراهيمي سياسي ودبلوماسي جزائري، كان وزيراً للخارجية الجزائرية بين عامي ١٩٩١-١٩٩٣،.بدء رحلته الدبلوماسية بتمثيل جبهة التحرير الوطني في جاكارتا (١٩٥٤-١٩٦١) إبان الثورة الجزائرية. وكان سفيرًا في الجامعة العربية (١٩٨٤-١٩٩١) ومبعوثا إلى لبنان ١٩٨٩ ومبعوثاً للأمم المتحدة إلى هايتي وجنوب إفريقيا واليمن وزائير في الفترة الممتدة بين عامي ١٩٩٤-١٩٩٦، وفي السنوات الأخيرة كلف من طرف الأمم المتحدة لحل تفاوضي في العديد من بؤر التوتر والتي كللت في العديد من الأزمات بنجاح، وبين عامي ١٩٩٧ حتى عام ١٩٩٩ كان مبعوثاً أمميا لأول مرة إلى أفغانستان ثم مبعوثا أمميا للعراق عام ٢٠٠٤.

الشمالية،وتلقيت أثناء ذلك دعوة من السيد عمرو موسى الأمين العام لجامعة الدول العربية للقدوم إلى مقر الأمانة العامة للجامعة العربية في القاهرة، للتباحث والنظر في إمكانية انضمامي للجامعة وفق بعض العروض، وكان أول عرض في أول مقابلة مع الأمين العام حين سألني الاشتراك بمهمة تفعيل الدور العربي في العراق،و ابلغني:

(إن الحجر الأساسي قد وضع لهذه المهمة إثر عقد مؤتمر الوفاق بين الأطراف العراقية والذي عقد في القاهرة)[1]،وكان نجاحه محفزا لكي نستصدر من القمة العربية التي عقدت في السودان، قرارا قويا كلفت الجامعة بموجبه بإجراء تحركات واتصالات للمساعدة في تحقيق الوفاق في العراق. فطلبت ٢٤ ساعة لكي ابلغ عائلتي والتشاور معهم بالأمر، برغم أن قرار القبول كان محسوما في داخلي،فالحكاية مع العراق قديمة ،وحتى عندما كنت في الأمم المتحدة، جاءت فرص في عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٤للعمل في العراق ،حيث وضعت قائمة من الأمين العام للأمم المتحدة تضم ثلاثة أسماء من بينها اسمي، مرشحين كسفراء للمنظمة

(1)في ١٩-٢١تشرين الثاني/ نوفمبر٢٠٠٥عقد في مقر جامعة الدول العربية بالقاهرة، مؤتمر الوفاق العراقي، بحضور مندوبين عن كافة الأطياف السياسية ومختلف التيارات الدينية والعرقية وبعض الزعامات والشخصيات بالعراق. وتطرق المؤتمر إلى عدد من القضايا الخلافية الأساسية من بينها الدستور العراقي وعدم تقسيم العراق فضلا عن مسألتي انسحاب القوات الأجنبية من العراق ووقف العنف وإلقاء السلاح من قبل الميليشيات و إصلاح الأجهزة الأمنية التي طرحت نفسها بقوة بعد افتضاح أمر تعذيب آلاف العراقيين في سجون الحكومة التي تديرها الميليشيات بوزارة الداخلية العراقية.وبرغم أن البيان الختامي لهذا المؤتمر لم يكن مقنعا ولم يتضمن الأسس الرصينة التي يمكن أن يبنى عليها التوافق العراقي ، إلا أن التخلي عن كل ما تم الاتفاق عليه في هذا البيان بعد انتهاء أعمال المؤتمر ،قد شكل ظاهرة واضحة عند كل أطراف العملية السياسية والحكومية ،بعد أن كانوا قد أيدوا ما جاء فيه ووقعوا عليه.للمزيد ينظر في ملاحق هذا الكتاب البيان الختامي الذي صدر عن المؤتمر.

الدولية في العراق ، ولم يكن اسم(اشرف قاضي)الذي أصبح سفيرا للأمم المتحدة في العراق ، من بين المرشحين في هذه القائمة، وعندما تمت مفاتحتي في الموضوع ، كانت لدي إشكالية تتعلق بسؤال جوهري بالنسبة لي ، هو :ماذا افعل في العراق كسفير للأمم المتحدة، ولابد أن ارجع إليها كل ثلاث أو أربع اشهر لأقدم تقريرًا عن الوضع في العراق وما يمكن أن أكون قد أنجزته في تلك المدة، وأنا لا يمكن أن أنجز شيئا أن لم يكن لدي تفويض واضح وصريح من قبل مجلس الأمن، إذ لا يمكن أن اتخذ أي مبادرة أعتقد أنها لصالح العراقيين وهي تتناقض مع مصالح وسياسات أي من الدول داخل مجلس الأمن،وبالتالي فاني سأصطدم بهذه الدول ولن أستطيع أن أقوم بأي عمل،لذلك وخلال حديثي مع الأمين العام للأمم المتحدة ، سألته هل ستطلبون من مجلس الأمن تفويض واضح وصريح بهذا الشأن ينطلق من ميثاق الأمم المتحدة وبهدف أسمى وواضح هو مساعدة الشعب العراقي،فابلغني بان ذلك لن يحدث ، الأمر الذي جعلني ومن معي في القائمة (ولنفس السبب) غير مهتمين بقبول المهمة. ولما جاء العرض من قبل الجامعة العربية التي لم يكن لديها أدنى تجربة في فتح أي مكتب لها في منطقة صراعات أو حروب وليس لها حتى جزء بسيط من تجربة وإمكانات الأمم المتحدة، قبلت بالمهمة لسبب واحد يتعلق بكون الجامعة العربية ليس لديها مجلس امن ،وان غطاء الأمانة العامة سيتيح لي اتخاذ مبادرات شخصية وفق قناعاتي، فضلا عن كون عائلتي عندما أبلغتها بما معروض علي من الجامعة العربية ،فقالت لي زوجتي وابنتي وابني :(نحن نساندك فيما تقرر ونحن نؤيد ما تراه برغم معرفتنا بخطورة الوضع في العراق ، لأننا نعرف مدى حبك لهذه المهمة ،وشغفك الكبير بتقديم المساعدة للشعب العراقي). ومن هنا قبلت بالمهمة وقررت أن أقيم في العراق وفي(المنطقة الحمراء) تحديدا حيث يعيش العراقيين(برغم كل المخاطر التي أدركها جيدًا) منطلقا من قناعة ثابتة

بأن ليس بإمكان العراقيين أن يخبروني كل شيء وأنا بعيدًا عنهم .

إن رفض (مختار لماني) لمهمة أن يكون سفيرا للأمم المتحدة في العراق،كونها(مهمة مستحيلة) وفقا لحساباته،وقبوله بان يكون سفيرا للجامعة العربية في العراق ، وهي (مهمة أكثر من مستحيلة)بحسابات أوضاع الوهن والضعف في الساحة والمواقف العربية، و الخلافات العربية –العربية،فضلا عن الأوضاع الأمنية المتردية في العراق و كون إطراف عديدة ومؤثرة في الساحة العراقية ترفض الوجود العربي في العراق، يبدو أمرا متناقضا أو غير مفهوم، إلا أن تفسير كل ذلك عند السفير مختار لماني يبدوا مختلفا، إذ يقول مبدد حيرتي في قراره :أنا لم أكن موهوما، كانت لدي قناعة وما زالت قائمة ، بان هناك إمكانية لمساعدة الشعب العراقي .. لا اخفي عليك أنني أحببت هذه المهمة جدا ، وكان هناك سبب شخصي إضافة إلى مقاييس قبول هذه المهمة ، لقد كنت شاهدا عندما زرت العراق في التسعينات على معاناة أطفال العراق والنساء العراقيات والمرضى والشيوخ في ظل الحصار الذي كان مفروضا على العراق ،وكنت أرى وأنا في الأمم المتحدة كيف كانت القرارات تصدر ضد العراق بهدف إيذاء العراقيين،وعندما تم احتلال العراق كانت كل هذه الأوضاع قد تفاقمت ،ولا احد يفعل شيئا لإنقاذ هذا الشعب الجميل بكل مكوناته فكل المؤتمرات والقمم والندوات والتصريحات لم تكن تقدم سوى الكلام المنمق والوعود ، لكن لاشيء منها يصب في مساعدة العراقيين ودعم المهمات في هذا الاتجاه وبما يرفع عن العراقيين هذه المحنة المستمرة.

لقد كانت الوعود المقدمة لدعم مهمتي كثيرة ،ولم ينفذ منها إلا النزر اليسير جدا، لكن ذلك لم يقف عائقا أمام المضي في المهمة، حتى الأمن وهو ضروري جدا لم يوفر لي ولبعثة الجامعة ، لكنني لم انسحب ووصلت إلى درجة عدم الاهتمام بهذه الجوانب اللوجستية، برغم أنها أثرت سلبا على المهمة خاصة خلال الأشهر الخمس

الأولى التي كنت خلالها أسعى لأن أكون مستمعا لكل وجهات نظر العراقيين على اختلاف طوائفهم وقومياتهم وقناعاتهم .

إن (الإطلالة الأولية)التي ترسم الإطار الأخلاقي والإنساني والمهني والسياسي،الذي حكم السفير مختار لماني طوال عامه في العراق،لم تكن لتكتمل إلا بالحديث عن(مستوى المنسوب العاطفي) في اتخاذه قرار القبول بالمهمة، فحدثني (اللماني) عن ذلك المستوى قائلا : أن قراري بالموافقة على المهمة التي عرضتها علي الجامعة العربية ومن ثم الذهاب إلى العراق،كان يحمل الجانبين العاطفي والعقلي ، فحرصي وغيرتي الشديدتين حكما على تفكيري وتعاملي، في أن أكون على نفس المسافة من كل الأطراف في العراق،لقد كان هناك احتقان شديد،وكنت أرى والمس ذلك بوضوح فيزداد ألمي على ما كنت شاهدا عليه قبل سنوات من علاقة متينة ومميزة بين العراقيين، وما أنا شاهد عليه والعراق تحت الاحتلال وكيف وصل هذا البلد العريق بتاريخه وحضارته وشعبه المبدع إلى هذا الحد من العبث والجنون وإنكار الناس لعراقيتهم،وكنت أتساءل وأنا أرى المحنة على هذا المستوى الخطير : كيف سيرجعُ العراق إلى وضعه الطبيعي وكيف سيكون مستقبل أجيال العراقيين؟لقد كان مستوى المنسوب العاطفي والعقلي عاليين في نفسي وفي بلورة قراري بالموافقة على المهمة والذهاب إلى العراق وهو يشتعل ،ولم تؤثر بي ولا في مناسيب المستويات العقلية والعاطفية،معرفتي الدقيقة بالأوضاع العربية وشكل ونوع الدعم الذي يمكن أن احصل عليه، ولا حتى نصائح التخلي عن المهمة التي تبرع بها البعض (من المحبين أو غير المدركين)،ولا الكلام الذي سمعته من هنا أو هناك ،وأذكر أنني كنت في مبنى الجامعة العربية في القاهرة وكنت للتو قد أبلغت الأمين العام بموافقتي على المهمة ،وإذا بسمعي يلتقط (من دون قصد)، كلاما كان يدور بين سفيرين لدولتين عربيتين كانا يقفان أمامي عند بوابة احد المصاعد في مبنى

الجامعة العربية ولم ينتبها لوجودي ،إذ قال أحدهما للآخر: (أنا متلهف جدًا لأعرف من هذا المجنون الذي قبل بمهمة الذهاب إلى العراق)،أو من قال لي : (أنصحك عندما تصل العراق أن تأخذ بيتا من البيوت الفارهة في المنطقة الخضراء،وتستمتع بأيامك هناك بالقراءة والسباحة وحضور الدعوات والتعرف على الكثير من الشخصيات التي يمكن أن تفيد المرء فيما بعد ...).أن كل هذا الكلام الذي سمعه السفير مختار لماني (سواء كان نقدا أو نصيحة) ،جاء في الوقت الذي عزم فيه على الذهاب إلى العراق، وقد غادرته كل البعثات العربية

والسفير المصري كان قد اختطف وقتل[1]،فيما كان عدد جثث العراقيين المغدورين التي تلقى كل يوم في المزابل أكثر من (٣٠٠) جثة،والميليشيات والعصابات تكاد أن تكون الحاكم الفعلي للشارع العراقي مع قوات الاحتلال ، الأمر الذي جعلني أسأل السفير مختار لماني: هل اعتبرت الكلام الذي سمعته ذما أم مدحا ؟

فأجاب :لم تكن لدي أوهام بالنسبة للمرارة التي كنت اشعر بها دائما إزاء سهولة اتخاذ القرارات العربية وعدم تنفيذها، في تاريخنا الدبلوماسي الكثير من هذه القرارات وهي لا تقتصر على ما جرى في العراق بل هناك ما يخص لبنان وفلسطين وغيرها، عندما تكون القرارات سهلة وتخص أمورا ليست ذات أهمية كبيرة ولا تنفذ، يكون وقعها أقل تأثيرًا من أن تكون القرارات تمس واقع شعب يحتضر ويموت وأنت تقف متفرجا عليه ، هذا شيء مؤلم جدا.. الكلام الذي سمعته(سواء

(1)إيهاب صلاح الدين أحمد الشريف (كانون الثاني/ يناير ١٩٥٤ -تموز/ يوليو ٢٠٠٥)، كان سفيرا لمصر في العراق إلى أن قتله خاطفوه في تموز/ يوليو ٢٠٠٥. وهو أول سفير لدولة عربية في بغداد بعد الاحتلال الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣، وقد تم خطف إيهاب الشريف يوم السبت ٣ تموز/ يوليو، ٢٠٠٥ عندما خرج من سيارته لشراء جريدة وسط مدينة بغداد.

كان يشكل نقدا لي أو للمهمة كلها أو كان ناصحا) لا يمكن أن يرقى إلى واقع إحساسي بحقيقة وواقع الفجيعة والمحنة الكبيرة التي يعيشها العراق وأهله، وضرورة تقديم المساعدة والتحرك بسرعة كجزء من محاولة تفادي تقديم خسائر وتضحيات جديدة أو حتى التقليل منها، لذلك لم أكن مهتما بكل هذا الكلام . الوضع في العراق كان بالنسبة لي يتألف من ثلاث مستويات علي أن أتعاطى معها بحذر شديد ودقة عالية، المستوى الأول والأساسي بالنسبة لي هو المستوى العراقي (العراقيون والعراق) والمستوى الثاني هو الجوار وهو معقد جدا ومؤثر جدا ، أما المستوى الثالث فهو الدولي ،وفيه قوى دولية كبيرة عندها جنود وأسلحة ومعدات وخطط حربية على الأرض، وكان علي دائما أن أجد جوابا مقنعا وعمليا لسؤال جوهري هو : كيف يمكن تأمين التفاعل بين كل هذه المستويات مع بعض ،وكيف يمكن تطمين شعور الإنسان العراقي (على الأقل) وهو يواجه تأثيرات وتداعيات كل هذه المستويات،وقد وصل هو إلى قعر البئر ؟

ولان الإطلالة الأولية لابد أن تشمل (أيضا) الخطوات التي تسبق الوصول إلى (المنطقة الحمراء)،لذلك كنت في أول لقاء مع السفير(مختار لماني)في العاصمة الأردنية عمان عام٢٠٠٦، أبادر إلى سؤاله عن ما تم تهيئته لافتتاح البعثة من قبل الجامعة العربية قبل الذهاب إلى بغداد ،فاخبرني: كان هناك اتفاق مع الأمين العام للجامعة العربية، على توفير عناصر امن اصطحبها معي وأنا ذاهب إلى بغداد من القاهرة ، لكن كل الدول العربية رفضت توفير مثل هذه العناصر، ولاني كنت قد أعلنت موافقتي على قبول المهمة لذلك لم يكن من المناسب أن أتراجع لهذا السبب عن قراري بقبول مهمة سامية ونبيلة تجاه العراق والعراقيين، ولكوني مدرك تماما بان ليس من الإنصاف تحميل الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ، ما هو أكبر من طاقتها ، فقرار القمة العربية في السودان(مثلا) ينص حرفيا على القيام بفتح بعثة

الجامعة في العراق فورا ، وتخصيص (مليوني) دولار وسيارة مصفحة ورجال امن وغيرها من الأمور اللوجستية المهمة ، لكني وبعد أن قضيت أربعة اشهر في العراق علمت بان الأمانة العامة للجامعة تلقت أول دفعة من المبلغ الذي تم إقراره للبعثة ، وكانت هذه الدفعة بمبلغ (١٥٠) ألف دولار دفعت من قبل الجزائر تسديدا لحصتها المقررة من اصل المبلغ الكلي. (في نهاية عام ٢٠٠٧ التقيت السفير مختار لماني وكان قد أنهى مهمته في العراق منذ فترة ،وسألته عن قيام باقي الدول العربية بتسديد حصتها من اصل المبلغ الذي اتفق العرب على تخصيصه في قمة عربية ، فأخبرني بأنه انسحب من المهمة بعد عام ولم تكن الأمانة العامة لجامعة الدول العربية قد استلمت غير ذلك المبلغ الذي سددته الجزائر عن حصتها !!).

في المنطقة الحمراء

في أحد أيام النصف الأول من شهر نيسان/ ابريل ٢٠٠٦ ،غادر السفير مختار لماني مدينة القاهرة حيث مقر الجامعة العربية صوب العاصمة الأردنية عمان،بصحبة احد موظفي الأمانة العامة للجامعة (طارق عبد السلام) الذي اختاره ليكون المسؤول عن الشؤون الإدارية للبعثة التي سيذهب لافتتاحها في بغداد، التي نزل في مطارها لأول مرة قادمًا من عمان ، حيث أن زياراته السابقة للعراق في الأعوام ١٩٩١ و١٩٩٢ و ١٩٩٥كانت والعراق تحت الحصار والتنقل إليه ومنه يتم عبر البر كون الطيران كان مشمولاً بقرارات الحصار والمنع، ومنذ اللحظة الأولى التي وطأت قدما السفير مختار لماني ارض مطار بغداد ،وجد نفسه في مواجهة حياة غير عادية،حيث جنود الاحتلال الأمريكي ينتشرون في المطار إلى جانب جنود عراقيين وأعداد أخرى من الميليشيات التي لا يعرف إلى اي حزب أو قوة ينتمون، فيما كان صوت الانفجارات واطلاقات الأسلحة يصل إلى أسماعه بوضوح بين لحظة وأخرى (وهو الرجل الذي لم يمسك سلاحا في حياته ، والمرة الأولى التي حصل فيها ذلك كانت في العراق (كما حدثني فيما بعد) حين قام جلال الطالباني في إحدى المرات التي التقاه بها، بإعطاء السفير مختار لماني بندقية كلاشنكوف روسية الصنع، كهدية شخصية لاستعمالها في الأوقات الطارئة ، فقال له اللماني يصعب علي قبول هذه الهدية لأني أخشى السلاح ولا أريد التعامل معه أبدا وربما إذا ما أخذته سأستعمله بشكل غير صحيح قد يؤدي إلى أن اقتل نفسي به». وفيما كان (اللماني) في طريقه من المطار إلى بيت الضيافة التابع لوزارة الخارجية التي يقع مقرها عند

الحدود الشمالية للمنطقة الخضراء، كانت أصوات الاطلاقات تلك تتعالى، وتصل إلى أسماع السفير مختار لماني بوضوح ، وما هي إلا ساعات قليلة مرهقة ومقلقة حتى خيم الليل وإذا بالكهرباء مقطوعة ولا مفر من قضاء الليل حتى بدون جهاز إضاءة يدوي صغير(تورج) وبدون حراسة كافية وأمن.

حدثني السفير مختار لماني، انه ومنذ اللحظة الأولى التي وصل فيها إلى بغداد، كان مشغولا بإيجاد مكان مناسب يكون مقرا لبعثة الجامعة العربية التي يرأسها ويكون في نفس الوقت مقرا لسكنه،شرط أن يكون هذا المكان في المنطقة الحمراء،برغم أن مبلغ إيجاره لم يكن متوفرا، حيث انه لم يحصل من الجامعة على أي مبلغ سوى الوعد بتوفير ما ستحتاج له البعثة(فيما بعد)، عندما يتوفر المال الذي سبق أن تم القرار على تخصيصه في مؤتمر القمة العربية في السودان (مليوني دولار).

* سالت السفير مختار لماني وأنا أوثق شهادته عن سنة عاشها في العراق:لماذا اخترت أن يكون مقر البعثة وسكنكم في المنطقة الحمراء، وأنت تعلم أن الأوضاع في العراق كانت في غاية السوء، وبخاصة الوضع الأمني ،حيث الساحة العراقية مشتعلة وعمليات التصفيات والقتل والتهجير على أشدها، فضلا عن معرفتكم أن أطراف فاعلة ومؤثرة على الساحة العراقية كانت ضد أي وجود عربي في العراق وأن السفير المصري كان قد اختطف وقتل قبل شهور من وصولكم ؟

فأجاب:اخترت مقر البعثة وسكني في المنطقة الحمراء ليس من باب ادعاء البطولة ، ولكن لسبب بسيط جدا يتعلق بكوني ذاهب إلى بغداد حاملا مشروعا للوفاق الوطني بين العراقيين ، ولتنفيذ هذا المشروع يجب أن اضمن الوصول إلى جميع العراقيين واسمع منهم ، وإذا ما اخترت الإقامة في المنطقة الخضراء، فإن ذلك يعني أن العراقيين الذين ضد العملية السياسية وضد الاحتلال لن يستطيعوا ولن يتبلوا أن يصلوا إلينا،وان استطاعوا وقبلوا ، سيقبض عليهم، إضافة إلى أن الناس

العاديين لن يستطيعوا ولن يسمح لهم الدخول إلى المنطقة الخضراء، التي أستطيع أنا دخولها ومقابلة أي من أعضاء الحكومة والبرلمان الموجودين هناك، بعد طلب بطاقة للدخول من الأمريكيين. ومن هنا كان قراري بالسكن في المنطقة الحمراء ، الذي جعلني استقبل في مكتبي المئات من الناس، عدا اللقاءات التي كنت أجريها في عمان ودمشق والقاهرة وفي مدن أخرى مع شخصيات وأطراف عراقية عديدة.ومنذ وصولي بغداد ومن خلال اللقاءات الأولية قسمت العراقيين إلى أربعة مجموعات، الأولى هم رجال السياسة وهم على مجموعتين،مجموعة رجال السياسة في الحكومة والبرلمان والذين يشاركون في العملية السياسية، ومجموعة رجال السياسة الذين رفضوا العمل السياسي تحت الاحتلال،وقد التقيت بكل هؤلاء عدا من لهم مشروع يتجاوز العراق . المجموعة الثانية وفقا لتقسيماتي والتي حرصت على أن اسمعهم ، هم رجال الدين الذين صار لهم دور كبير في العراق بعد الاحتلال ،وأحيانا تجد دورين (دور ديني ودور سياسي)،فقابلت جميع رجال الدين بدون أي استثناء(مسلمين أو مسيحيين أو صابئة أو يزيديين أو غيرهم)ومن كل الطوائف والتقسيمات حتى من الديانات الصغيرة ،لقد حرصت بشدة على أن التقي الجميع وأزورهم وان تكون لي علاقة شخصية مع الكل .المجموعة الثالثة كانت رجال العشائر العراقية، وهي مجموعة فلكلورية بالرغم من أهمية العشائر في التركيبة المجتمعية للعراق، لكن ما حصل مثلا عام ١٩٩١ في قانون العشائر، أن البعض من رؤساء العشائر صاروا يعينون كما الموظفين بقرار من الدولة،والبعض الآخر طبعا كانوا يتناوبون على زعامة عشائرهم أبا عن جد، لدرجة أني كنت احتار عندما يتصلون بي وكل واحد منهم يقول انه رئيس عشيرة، حتى جاء وقت وجدت أن رؤساء العشائر أكثر من الشعب العراقي،الأمر الذي جعلني اقرأ بعض الكتب التاريخية التي تتكلم عن العشائر العراقية لفهم هذه الأمور ومحاولة إدراك الحلقة

المفرغة بين الواقع التاريخي الموجود في الكتب وبين الواقع الحالي ،أما المجموعة الرابعة فمثلت ما في المجتمع المدني من شخصيات عراقية تمتلك فهما واسعا ومنفتحا للمجتمع العراقي ومن دون انحياز لطائفة أو شريحة منه.ووفقا لهذه التقسيمات وضعت جدولا لمقبلة الجميع والاستماع إليهم ، في إطار الحرص الذي ألزمت نفسي به، في أن أكون على نفس المسافة من كل الأطراف العراقية وان الكلام الذي أقوله لهذا الطرف هو نفس الكلام الذي أقوله للطرف الآخر،ولم أكن أسعى للطريق السهل الذي يتلخص في أن اسمع كل طرف ما يريد أن يسمعه،فانا مؤمن تمامًا أن هذا الطريق يفقد الإنسان مصداقيته ، فالتصفيق لهذا الطرف ولذاك الطرف يفقد المرء كل شيء، لقد كان تركيزي (أحيانا) ينصب على إبلاغ رسائل من طرف إلى طرف آخر انقل فيها ما يقربهم وليس ما يبعدهم ، وكنت أحاول أن اجعل كل الأطراف تتحدث وتفكر من دون غلو واحتقان وحقد وتراكم لمشاكل عديدة . ربما كنت على خطأ في بعض الرؤى لكن عن (حسن نية) وفي إطار غاية سامية تتلخص في تامين توافق العراقيين مع بعضهم ، ولقد كان اشد ما يؤلمني هو انعدام الثقة تماما بين الأطراف العراقية، بحيث أن لدى الكل تخوف رهيب من مستقبل العراق ، وربما الشيء الوحيد اتفقوا عليه جميعهم هو هذا الشعور بالخوف على بلدهم ومستقبله، بالإضافة إلى الشعور المشترك لدى الجميع بان كل طرف أو مجموعة أو طائفة هي ضحية للطرف الآخر ، الأمر الذي جعل إمكانية إقامة حوارات جادة ومثمرة بينهم تبدو على درجة كبيرة من الصعوبة، بخاصة مع الاتكاء على الهروب إلى الأمام والسعي لتحقيق أعلى المكاسب على حساب الآخرين. والأمر لا يقتصر على ذلك فحسب، فعندما وصلت إلى العراق عام ٢٠٠٦ حاملا مشروع الوفاق ،استنادا إلى ما حققته الجامعة العربية في مؤتمر الوفاق العراقي الذي انعقد في القاهرة في شهر تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٥، كانت مياه

كثيرة قد جرت وكانت الأجندة قد تغيرت عند أطراف عديدة سبق وان حضرت مؤتمر القاهرة كأطراف تمثل نفسها ومصالح مرجعياتها ، ووجدت وأنا أعمل بسرعة على التحضير لمؤتمر آخر للوفاق بين العراقيين،يعقد في بغداد ويكمل مسيرة المؤتمر الأول ، أن الأطراف التي شاركت بالعملية السياسية(وسبق وان حضرت مؤتمر القاهرة) لا تريد أن ينظر لها أو يتم التعامل معها مثلما كان عليه الحال في مؤتمر القاهرة، وان تكون بمستوى واحد مع الأطراف الأخرى ، فهي راحت تتحدث من موقع أن هناك دستور الآن وان انتخابات قد جرت وأنها اليوم الجهة الوحيدة التي تمثل الشعب العراقي ، خاصة رئيس الوزراء (نوري المالكي) [1]

(1)نوري كامل المالكي، ولد في قضاء طويريج التابع لمحافظة كربلاء عام ١٩٥٠، في عام ١٩٧٠ انضم إلى حزب الدعوة الإسلامية المحضور في العراق بسب ارتباط تنظيماته بإيران ولوقوفه إلى جانبها ودعمها في الحرب ضد العراق (١٩٨٠-١٩٨٨) والمشاركة في الأعمال التخريبية والتفجيرات التي حصلت آنذاك في العراق. غادر المالكي العراق عام ١٩٧٩ إلى سوريا ومن هناك إلى إيران حيث عمل مع التنظيمات العسكرية الإيرانية ضد الجيش العراقي. عاد إلى سوريا قبيل احتلال العراق ، ودخله مع الاحتلال عام ٢٠٠٣ وكان يعرف نفسه باسم (جواد المالكي)، اختاره الحاكم الأمريكي للعراق (بول بريمر)عضوا في مجلس الحكم الانتقالي،أسهم في تأسيس كتلة الائتلاف العراقي الموحد الذي يضم كل الأحزاب والقوى الطائفية الشيعية ،للدخول في الانتخابات التي جرت عام ٢٠٠٥ . في عام ٢٠٠٦ تم اختياره بتزكية من التيار الصدري كرئيس للحكومة بديلا عن إبراهيم الجعفري، وفي عهده ساء الوضع الأمني أكثر مما كان عليه واتسعت عمليات الخطف والتهجير والقتل الطائفي ، فضلا عن اتساع الفساد الإداري والمالي الذي استشرى في مفاصل حكومته ومؤسساتها وقواها الحزبية،فضلا عن أن عهده شهد توقيع الاتفاقية الأمنية بين أمريكا والعراق التي تؤبد الاحتلال وتضيف على العراق قيودا جديدة.في عام ٢٠٠٩ نشرت مجلة التايم الأمريكية قائمة بأسماء أكثر من مائة شخصية موتورة في العالم ، احتل فيها المالكي المرتبة السابعة. اشترك المالكي في انتخابات آذار/ مارس ٢٠١٠ تحت قائمة تحمل اسم (ائتلاف دولة القانون) ولم يحصل على المرتبة الأولى مثلما كان يتمنى ، حيث تأخر برغم كل عمليات التلاعب والتزوير التي حصلت، بفارق مقعدين عن منافسه رئيس القائمة العراقية(إياد علاوي) ،فتراجع المالكي عن تصريحاته=

الذي لم يترك فرصة تمر في أي من المرات التي التقيته بها، من دون أن يقول لي بطريقة أو أخرى، بان وجودي كسفير للجامعة العربية في بغداد يجب أن يكون لدعمه وحكومته والعملية السياسية[1].

لقد كان علي أن أواجه توجهات متضاربة وأفكار مختلفة تماما ، فالذين دخلوا العملية السياسية وامنوا بأنها السبيل لتحقيق مصالحهم ومصالح من يمثلونه، كان عندهم (على الرغم من خلافاتهم مع بعض)عامل مشترك ومن ورائهم أمريكا ، يتمثل في تصميمهم جميعا على أن القطار قد انطلق ولا احد يقدر أن يوقفه ولن يرجع إلى الوراء،ولعل مشروع (المالكي)الذي قال انه للمصالحة ،خير تطبيق عملي على ذلك مع تعديل بسيط يشير إلى إمكانية أن يتوقف القطار في إحدى المحطات القادمة ليركب فيه البعض ممن ينالون التزكية والقبول، وربما سيكون من المناسب إعطاء بعض المناصب والامتيازات لكي يظهر للآخرين أن المصالحة قد تمت وصارت واقعا ملموسا .

أما الأطراف الأخرى التي تقف ضد العملية السياسية والأطراف المقاومة للاحتلال، فإنها ترى أن أي عمل جاد يجب أن ينصب على إزالة الاحتلال،وحتى إذا انطلق القطار فيجب أن يعود إلى نقطة الصفر للاتفاق على مشروع وطني.

ومابين هذين الموقفين ، خلاف كبير جدا .. وبين الأطراف التي تتبنى هذا

=ووعوده بتسليم السلطة بشكل سلمي ،وسعى إلى الالتفاف على النتائج لكي يبقى على سدة الحكم في العراق .

(1)في مقابلة مع مجلة الوطن العربي في ١٤ تشرين الثاني/ نوفمبر٢٠٠٨ ،وردا على سؤال حول رأيه برئيس الحكومة العراقية (نوري المالكي) ، قال السفير مختار لماني : أنا أكثر واحد لم أكن مرتاحاً له، لأن المالكى رجل طائفى حتى النخاع.فهو ينتمى لحزب طائفى، هو حزب الدعوة الشيعى الذى انقسم إلى ثلاثة أحزاب، وسيزداد الانقسام أكثر، لأن الصراع على السلطة رهيب فى العراق.لقد رفض إدخال حتى أفراد الصحوات فى الجيش، فقط لأنهم سنة.

الموقف أو ذاك ، قطيعة تصل إلى حد أن لا احد منهم يقابل الآخر ولا حوار بينهم، لكن ذلك لم يحبطني ولم يمنعني من مواصلة الاتصالات مع كل الأطراف ، حتى عندما طرح(المالكي) مشروعه للمصالحة الذي كان يهدف إلى تعطيل مشروع الوفاق الذي جئت إلى العراق من اجله وسحب البساط من تحت أقدام الجامعة العربية ، إلا أنني لم أتراجع عن تصميمي في المضي بإنجاز ما عزمت على إنجازه لصالح العراقيين ، إيمانا مني بأنه إذا لم يتم تدارك الوقت والوعي بكل هذه الأوضاع وتنمية القناعة الجماعية الشديدة، بان العراق لا يمكن أن يحكمه طرف من دون الأطراف الأخرى ، وان لا سبيل لخروج العراق من محنته الكبيرة إلا بتوافق العراقيين ، والحديث عن كل المشاريع الأخرى أشبه بمن يحرث البحر. ولعل الحديث عن مدينة كركوك يلخص جانبا من كل الصورة المعروضة ،فلقد التقيت أطراف عديدة تمثل المكونات الاجتماعية لمدينة كركوك ،ووجدت أن كل طرف من هذه الأطراف يدرك تماما انه يشكل جانبا من مشاكل المدينة ومن الحلول الواجبة لها ، ولكن كل طرف وضع لنفسه حدودا ولا يريد التنازل عنها،وهناك تناقض شديد ما بين حدود طرف وحدود الطرف الآخر، وهناك اختلاف و لتشتت بالرأي حيال المادة (١٤٠) من الدستور الخاصة بإجراء استفتاء وتحديد عائدية ارتباط المدينة، الكل يدعي الأحقية والكل لديه وثائق والكل متهم بأنه وراء المأزق الذي تسبح المدينة في مياهه، وإذا لم تتولد لدى كل الأطراف القناعة بجعل كركوك عراقًا مصغرًا (كما هو واقعها فعليا) من خلال الاتكاء على المواطنة وهويتها الجامعة وترك التعصب للهويات الفرعية، فان كركوك ستشكل أزمة مستعصية وشائكة ، ستؤدي بدورها إلى (تفريخ) مشاكل أكثر ويمكن أن تفجر البلاد كلها .

خضراء ... حمراء

في كل الحوارات التي أجريتها مع السفير مختار لماني، كان الرجل دائم التذكير بالتناقضات الرهيبة التي كان يجدها حاضرة في كل صور المشهد العراقي الذي كان شاهدا عليه طوال عام كامل ،وكان يرى أن تلك التناقضات قد لعبت دورها المرسوم في التشرذم الذي كان يعلن عن نفسه في علاقات العراقيين مع بعضهم وفي علاقات أطراف العملية السياسية مع بعضها وبين المحتلين وكل الأطراف ،كان يقول : أن التناقضات التي وجدتها في المشهد العراقي ، ما تصورت أن تكون على هذا الشكل من الحدة ، فهي تبدأ من كلام البعض: (أن الدنيا بخير وان العراق في وضع جيد)، إلى مشاهد القتل الأعمى على الهوية.وربما يكون التناقض بين المنطقة الخضراء والمنطقة الحمراء، من بين الأمثلة الأكثر وضوحا في هذا الجانب، الفرق شاسع بين الحياة في هذه المنطقة وتلك المنطقة،كأننا نتكلم عن فرق عصور، فخلال السنة التي عشتها في العراق، لم أشاهد الناس يمارسوا رياضة الجري وهم يلبسون الشورتات الرياضية القصيرة ، إلا في المنطقة الخضراء،فيما يمارس أهل العراق في المنطقة الحمراء الجري طوال الوقت من المفخخات والعبوات الناسفة وعصابات الخطف وميليشيات القتل والتهجير. ففي المنطقة الخضراء، هناك نساء ورجال .. دبلوماسيين وعسكريين وموظفين لدى الأمريكيين أو الحكومة ، ينعمون بكل وسائل الرفاهية من كهرباء لا تنقطع أبدا إلى المطاعم بكل مسمياتها العالمية والأسواق التي تحتوي على كل ما يخطر ببال من البضائع المستوردة من كل مكان،فيما يعيش كل أهل العراق من سكان المنطقة الحمراء، في بؤس وجوع

وحاجة وظلام وانعدام لكل الخدمات. أن الأربعة أميال التي تسمى المنطقة الخضراء ، لا تنتمي فعلا للعراق وليس لها علاقة بما يحصل في المنطقة الحمراء حيث يعيش كل العراقيين، لذلك فإن أحكام سكان المنطقة الخضراء إزاء ما يحصل في العراق دائما ما تكون بعيدة عن الواقع لأنها تخرج من أرضية لا تنتمي إلى الأرضية الحقيقية التي تتحرك عليها محنة العراقيين بكل مشاكلها وأزماتها وأحزانها.وقد وجدت حتى بعض الدول الأوروبية التي لم تشترك في الحرب ضد العراق وفي احتلاله ،عندما تريد أن تفعل شيئا لمساعدة العراقيين ، تأتي (مثلا) وتعقد ندوة عن حقوق الإنسان أو أي موضوع آخر ، وتختار المنطقة الخضراء مكانا لعقد تلك الندوة، وبالتالي تجد أن من حضر تلك الندوة والمواضيع التي تمت مناقشتها ، ليس لها علاقة تماما بما يجري في العراق ،ولا يمكن أن تضيف شيئا ايجابيا يمكن أن يفيد العراقيين . وهكذا،عندما أرى المنطقة الخضراء وأقارنها بالمنطقة الحمراء على بعد أمتار منها ، أجد أن حجم التناقضات خرافي ،وعندما أعبر لبعض المسؤولين في الحكومة والبرلمان عن عدم قناعتي بجدران الفصل بين المنطقة الخضراء والمنطقة الحمراء ، وعن شعوري بالألم والحزن لما يصيب العراقيين من أذى وحيف وما يعانونه من مرارة وفقدان لكل مقومات الحياة الكريمة في المنطقة الحمراء ، على العكس والنقيض تماما مما يراه ويعيشه سكان المنطقة الخضراء ..يرد علي بعضهم بالقول لماذا أنت متمسك بالسكن في المنطقة الحمراء إذن وبإمكانك أن تعيش معنا في المنطقة الخضراء بعيدا على كل هذه المناظر التي تؤلمك . "والبعض منهم يذهب ابعد من ذلك فيقول لي: أنت تتواجد في بغداد أكثر مما نتواجد نحن فيها، إضافة إلى أن بعض المسؤولين في الحكومة أو البرلمان عندما كانوا يأتون لزيارتي في مقر بعثة الجامعة العربية في المنطقة الحمراء ومعهم عشرات من الحرس المدججين بالأسلحة ، يقولون: أنت تأتي بنا إلى منطقة ليست آمنة، أنت تعرضنا إلى الخطر،وكنت إزاء ذلك

اتساءل : هل هؤلاء فعلا مسؤولين في بلد يعاني شعبه الموت في كل لحظة ، ويحتاج إلى من يؤمن بالعراق ويحب العراقيين .لقد وجدت خلال السنة التي عشتها في العراق أن غالبية المسؤولين في الحكومة والبرلمان والأحزاب والقوى الماسكة للسلطة، لا يعيشون مع عوائلهم في العراق ، فالعوائل (كما اخبرني عدد كبير منهم عندما أسئلة عن عائلته)تعيش في بلدان بعيدة مؤمن عليها ولها مستقبل آخر،وكأن وجود هؤلاء المسؤولين في العراق فقط للحصول على المال ، وكنت أحيانا وأنا قادم من عمان إلى بغداد أقابل الكثير من هؤلاء المسؤولين الذين يسكنون هناك ويأتون بين حين وآخر إلى العراق لحضور جلسة لمجلس النواب أو لحضور اجتماع في الوزارة الفلانية أو لحضور دعوة عشاء أو غداء عمل يقيمه هذا أو ذاك من الأمريكيين والعراقيين والأجانب المتنفذين في المنطقة الخضراء ، ثم لا يلبث هؤلاء المسؤولين من العودة بسرعة إلى بيوتهم خارج العراق ، فأين المسؤولية الأخلاقية والوطنية لاي من هؤلاء مهما كان حزبه السياسي ومهما كانت طائفته وقوميته؟.. وهل هم يعملون فعلا من أجل بلدهم وشعبهم مثلما يدعون ؟ . الذي رايته يجعلني أقول: أنهم يعملون على عكس ما يحتاجه بلدهم وما يريده شعبهم ، وأنهم جزء من المشكلة والمحنة وليسوا جزءا من حلها .

غلالة الحزن

في وصفه للسنة التي قضاها في العراق ،يقول السفير مختار لماني بأنها سنة قاسية ومؤلمة وان لاشيء يستطيع أن يمسح غلالة الحزن من ذاكرته عن تلك السنة .

ولان غلالة الحزن هذه لابد أن تشكلت من صور ومشاهد ومواقف ، كان السفير مختار لماني قد عاشها وتعايش مع الكثير منها مجبرا،والتي ما كان لها أن تشكل كل هذا البعد النفسي عنه لولا الحب الذي يكنه للعراقيين الذين قال بأنه ما كان سيقبل بمهمة(سفير الجامعة العربية في العراق) ، لولا أن أهل العراق هم أهله،وان محنتهم القاسية تستدعي منه الوقوف معهم . ومن هنا كان لابد من رؤية ما في إطار (غلالة الحزن) انطلاقا من ذلك الحب الذي قد تعبر عنه عبارة المفكر والأديب الفرنسي المعروف (البير كامو) ،والتي علقها السفير مختار لماني على جدار مكتبه في المنطقة الحمراء والتي تقول : (لا مهمة لدي تعلو على حب الناس).

– يقول اللماني :في يوم من الأيام العصيبة التي عشتها في المنطقة الحمراء، كانت هناك انفجارات كثيرة ، كنا نشعر بان مبنى البعثة ربما سينهار علينا بين لحظة وأخرى ، كانت قذائف الهاونات تسقط قريبا منا ، ونسمع أصوات انفجاراتها العالية. القلق كان قد تملك كل العاملين في البعثة،وكنت قلقا أيضا على سلامة الجميع وأنا أنظر إليهم والبعض منهم يرفع يديه بصمت مبتهلا إلى الله أن يكتب له النجاة من هذه المحنة، والبعض الآخر يدعو الله في سره أن يحفظ الجميع ، فتذكرت في تلك اللحظات العصيبة (من بين أشياء عديدة خطرت في ذهني) مقولة ألبير كامو (لا مهمة لدي تعلو على حب الناس) فطلبت تعليقها على جدار مكتبي ،

كونها كانت تعبر بصدق عن كل الذي اشعر به إزاء العراقيين ، ومنهم العاملين معي في البعثة ، الذين كنا نعاني اشد المعاناة لكي نؤمن لهم الوصول إلى بيوتهم ، ومن المفارقات المؤلمة أننا رحنا نضع سائقا شيعيا يقوم بتوصيل بعض العاملين في البعثة إلى المناطق الشيعية، ونضع سائقا سنيا يوصل الآخرين للمناطق السنية، وكثيرا ما تعرضوا للأسف الشديد لمحاولات القتل، كان القلق شديدا عند العاملين على حياتهم في كل يوم عند قدومهم إلى العمل أو ذهابهم إلى بيوتهم،وهي حالة تشمل كل العراقيين أينما كانوا ولم تكن تقتصر على العاملين في مقر البعثة، في ظل الظروف العبثية التي كان العراق يعيشها في خضم التناقض الرهيب وصراع الشعب العراقي من اجل الحياة .

ربما كانت العبارة تفسر وجودي في العراق وضرورة بقائي هناك ، وتفسر حتى محاولاتي المستحيلة لتامين وسائل تحقيق الأهداف السامية لأهل العراق، وان أستطيع أن أقدم شيئا في هذا المسار. عندما تكلمت عن غلالة الحزن انطلقت في ذلك من شعور بالقهر ، فعندما يعمل المرء أشياء كثيرة(صحيحة ومطلوبة) ولا يجد من يسانده ،لابد أن يشعر بالأسى بخاصة عندما يجد أن هناك فرق كبير بين ما كان يتمنى أن يقدمه وبين ما أتيح له ليقدمه، وهذا ما كنت اشعر به فعليا في كل لحظة وفي كل يوم وليلة تمر علي،وكنت أسأل نفسي ما الذي كان من المفروض أن أقدمه من مساعدة للعراقيين الأبرياء ، فأجد أن ما قدمته كان دون المستوى، الأمر الذي جعلني أعيش صراعا بين ما يعمل وما يجب أن يعمل فعلا ،وهو ما خلق لدي غلالة الحزن الدائمة .

لقد كنت خلال سنة في العراق شاهد على أحداث مؤلمة رايتها وأخرى نقلت لي ، وكانت كلها تشكل الغذاء اليومي في الوضع الشاق الذي يعيشه العراق، والإنسان تزداد حيرته ويزداد حزنه عندما لا يجد تفسيرا لكل ما كان يحدث من قتل وتدمير

وتهجير وسبي واغتصاب وتغييب واعتقالات عشوائية وغير ذلك الكثير، فمثلا في فترة كانت هناك في بغداد جهات تستهدف (الخبازين) بالقتل. العاملون بهذه المهنة كانوا من كل الطوائف ، لذلك لا يمكن أن تشملهم بمن يقتل على أساس الهوية الطائفية، كما أنهم لا يمثلون اتجاها سياسيا أو أي قوة مسلحة أو ميليشيا تابعة لأي من القوى والأحزاب السياسية الفاعلة، لذلك لا يمكن أن تشملهم بمن يستهدفون عسكريا أو سياسيا، فكيف يمكن فهم الأسباب ؟.

الصورة العامة التي شاهدت العراق عليها في تلك الفترة ، كانت صورة مؤلمة وتبعث على الحزن والأسى على بلد التاريخ العظيم والشعب الذي علم الدنيا الكتابة والثقافة والحضارة ،الصورة التي رايتها تشكلت من مجموعة كبيرة من التناقضات، وكانت الطائفية جزءا واضحا فيها، لكنها لم تكن من الشعب العراقي وليست جزءا من موروثة ومن العناصر التي تأسس عليها المجتمع العراقي ، الطائفية كنت اشعر بها والمسها عند المسؤولين، كانوا يعبرون عنها بشكل واضح في تفكيرهم وفي قراراتهم وفي تعاملاتهم ، كنت أصاب بصدمة كلما ذهبت للقاء احد المسؤولين واجده يسأل من اصطحبه معي من موظفي البعثة من العراقيين : هل أنت سني أم شيعي؟ هل أنت مسيحي أم مسلم؟.والبعض منهم ربما يتجرا ويوجه سؤاله لي عن الطائفة التي ينتمي إليها الموظف الذي معي أو من أي الديانات هو ، فأضطر في مرات للرد بعصبية بأني لا اعرف مطلقا هذه المعلومات ولا أريد أن اعرفها ،وان المعيار الوحيد الذي جعلني اقبل بتوظيفهم هو إيمانهم بالعراق ومحبتهم لبلدهم ولشعبهم .

الساحة العراقية كانت تعج بكل المواقف من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال ، من أنبل المواقف إلى أتفهها، الصيف والشتاء كانا يجتمعان على سطح واحد في العراق وهو أمر لا يحدث في أي مكان في العالم، وبما يؤدي إلى خلق التناقضات وجعل

اللامعقول والعبث يطبعان الحياة على أنهما الحالة الطبيعية،والبعض ينبري بكل صلافة ليقول: أن كل ذلك هو نتاج طبيعي للديمقراطية التي يجني أهل العراق ثمارها الطيبة . لقد كنت سفيرا للمؤتمر الإسلامي لدى الأمم المتحدة في نيويورك عندما اندلعت الحرب ضد العراق عام ٢٠٠٣، واستمعت للكلام الأمريكي الذي كان يقال في مجلس الأمن عن نشر الديمقراطية في العراق والشرق الأوسط، وبعد أن احتلوا العراق ، ظهرت الحقيقة وانقلب الحال إلى كابوس لا نعرف إلى أين سيفضي والى أي مدى سيستمر وينتشر .

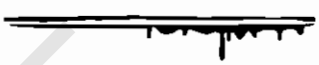

غاية أم هدف؟

كانت دعوة السفير مختار لماني للوفاق بين العراقيين ،دليل إيمانه بأن المواطنة وتمسك الجميع بالهوية الوطنية الجامعة كبديل عن كل الهويات الفرعية،هي الطريق الوحيد للخروج بالعراق والعراقيين من المحنة الكبيرة ،فالمواطنة معول يهوي على راس وجسد الطائفية ومن يدعو إليها ،وهي القوة المحركة والمنظمة لصناعة الحرية وإقامة العدالة بين الناس. ويرى اللماني أن قطار توافق العراقيين لن ينطلق إلا بالمصالحة الوطنية ،والتي يجب أن تكون عملا طوعيا وليس إسقاط فرض، وهي لن تتحقق إذا لم تعترف جميع الأطراف ببعضها البعض، وتقرر، وبشكل حاسم وشجاع، أن تحرر نفسها من مخالب الحقد ونزعة الانتقام وشهوة التسلط، ومن أن تكون أسيرة للماضي.

ولما كان انطلاق قطار المصالحة والتوافق بين العراقيين ، يحتاج إلى تهيئة لمستلزمات وإقناع واقتناع بالتوجهات، فكان لابد للسفير مختار لماني وهو يتولى مسؤولية وضع مشروع الجامعة العربية للوفاق بين العراقيين، موضع التنفيذ.. أن يضع خارطة للتحرك على كل الأطراف العراقية من اجل تامين مشاركة الجميع في مؤتمر الوفاق الذي كان من المؤمل عقده في بغداد في شهر حزيران/ يونيو ٢٠٠٦ ، يقول السفير لماني في توثيقه لأشكال وطبيعة الجهود التي بذلت لعقد مؤتمر الوفاق، ومن هي الأطراف التي ساندت تلك الجهود ومن وقفت ضدها ولماذا:في السعي والإعداد لمؤتمر المصالحة والوفاق بين العراقيين ،كنت حريصا على إشراك الجميع، لذلك اتصلت بكل الأطراف العراقية التي داخل العملية السياسية والتي خارجها،

وسعيت من البداية أن أتكلم مع كل الأطراف بكل صراحة ووضوح ومن قلبي، وقد ساعدني ذلك كثيرا في تامين بعض الحماية لنفسي بخاصة إنني والبعثة لم تكن لدينا حماية بالشكل المطلوب بالمقارنة مع أي بعثة من البعثات الدبلوماسية التي كانت موجودة في العراق آنذاك، حتى أن كل من كان يزورني في مقر البعثة يستغرب من ظروفنا الأمنية، والعديد منهم يتساءل مداعبا (وهو جاد طبعا) كيف لا تزال حيا وأنت تعيش في هذا البيت المكشوف في المنطقة الحمراء وتتجول حتى من غير حماية ؟ ، واعتقد أن العلاقة التي استطعت أن أقيمها مع كل الأطراف قد أسهمت في حمايتي وحماية البعثة،فالجميع كانوا يعرفون أني لا احمل أي أجندات باستثناء مساعداتهم،وإذا لم أتمكن من ذلك سأرحل ، وهذا ما حصل فعلا.

*هل كان عقد مؤتمر الوفاق هو الهدف من وجودكم وبعثة الجامعة العربية في العراق؟

-بالنسبة لي كان الأمر على العكس من ذلك ، كنت أؤكد للجميع أن مؤتمر الوفاق لا يجب أن يكون هدفا في حد ذاته ، الشعب العراقي ليس محتاجًا لبيانات وخطب رنانة، فيما الواقع الذي يعيشه يزداد صعوبة وفيما تزداد أعمال القتل والتدمير والتهجير، ما يحتاجه أهل العراق هي الحلول الصحيحة والحاسمة التي تنهي معاناتهم، ولا يمكن لهذه الحلول أن تحضر وتكون فاعلة إلا بتوافق العراقيين والاتكاء على المواطنة كأساس يغلب مصلحة الوطن والجميع على المصالح الذاتية والخارجية.

لقد عملت خلال اللقاءات التي أجريتها مع كل الأطراف العراقية طوال نحو خمسة اشهر، على تسجيل الملاحظات التي ساعدتني في تحديد المشاكل العراقية من النواحي السياسية والاجتماعية،وقد وجدت من خلال مواقف كل الأطراف إزاء كل مشكلة من المشاكل المطروحة، أن هناك بعض المشاكل يبدو من المستحيل حلها

إذا لم تغير الأطراف مواقفها إزاء التعاطي معها، وهناك مشاكل تبدو اقل صعوبة ويمكن حلها ، وكمثال على ذلك فان المواقف من الدستور والمواقف من الفيدرالية ، متباينة جدا وفيها كمية من الاختلافات والمشاكل التي يبدو من المستحيل حلها ، فكل طرف مقتنع بضرورة أن يفرض موقفه على الآخرين. وعلى أساس ذلك كنت اعمل على أن تكون البداية في التصدي لحل المشاكل الأقل صعوبة،وكان سعيي لعقد مؤتمر الوفاق للعراقيين ينصب في هذا الاتجاه، أملاً في أن حل المشاكل الأقل صعوبة سيخلق واقعا جديدا ويؤسس لمصلحة مشتركة لدى الكل ، ويجذر القناعة لدى كل الأطراف بضرورة التعاطي مع الجميع وفق رؤية واقعية تأخذ بالاعتبار، أنهم يعيشون مع بعض وان مصلحة أي طرف لا يمكن أن تتحقق وتكون مستقرة وآمنة إلا بتحقق مصالح الجميع ، وهذا الأمر فيه ضمانة مستقبل العراق والعراقيين ومستقبل كل أولادهم. نعم ، العملية ليست سهلة لكنها ليست مستحيلة ، وهي تتطلب وقتا وجهودا وتفهما ومساعدة من الجميع ،وكنت مملوء بالثقة والقناعة بأن المؤتمر في حد ذاته ، ليس سوى بداية ضرورية لعدة أشياء ، ولكن للأسف الشديد لم نستطع أبدا عقد ذلك المؤتمر ،وأعتقد أن قوى عراقية كانت ضد هذه القناعة، وكانت تقف وتعمل فعليا ضد أي عمل بهذا الاتجاه وتحاول أن تمنعه بأي شكل، وترى أنها هي صاحبة القرار والآمرة الناهية في هذا الشأن،وفي مقدمة هذه القوى، رئيس الوزراء (نوري المالكي) الذي كان وبكل صراحة ومصداقية ، جزءا من المشكلة وليس جزءا من الحل .لقد سعى منذ البداية إلى منع عقد مؤتمر وفاق العراقيين الذي سعينا لعقده بإشراف ورعاية الجامعة العربية ،وقد عمل على ذلك من خلال القول بأنه قد جاء إلى الحكم على رأس حكومة وحدة وطنية تمثل كل مكونات الشعب العراقي ، وهذه كذبة كبيرة كان الكل يعرفها ،فلو كانت حكومته هي حكومة وحدة وطنية وتمثل كل مكونات الشعب العراقي ،فلماذا ظلت

المشكلات تتفاقم في العراق ؟، ولماذا ظل العراق يمضي إلى الخلف متراجعا؟، ولماذا كان أهل العراق يتألمون ويعانون في ظل غياب الأمن والخدمات؟، ولماذا هناك أكثر من خمسة ملايين عراقي مهجرين بين 'لداخل والخارج ؟،ولماذا كل عمليات الاعتقال والقتل والتنكيل التي كانت تحصد العشرات والمئات من العراقيين يوميا ، ولماذا.. ولماذا .. إذا كان الوضع مثلما يصوره(المالكي) فلماذا لا يخرج وحكومته من المنطقة الخضراء؟.

كان رئيس الوزراء العراقي (نوري المالكي) يقول بأنه مقتنع بأن عدد كبير من العراقيين رفضوا المشاركة في انتخابات عام ٢٠٠٥ ، لذلك فهو لديه مشروع للمصالحة ، بمعنى أن مشروعه مقدم لمن رفضوا لإقناعهم بالدخول في إطار حكومته التي يقول أنها حكومة وحدة وطنية ،لكن ما الذي حصل ؟ .. بعد نحو سنتين من حكمه لم نجده قد سعى لإقناع احد من الأطراف الأخرى لفتح حوار معه (فقط) وليس للدخول في مشروعه للحكم ،والذي حصل أيضا أن الكثير ممن كانوا شركاء له في حكمه قد انسحبوا،كالتيار الصدري ومن ثم جبهة التوافق وغيرهم ، حتى أن هناك جماعات وأشخاص من الائتلاف المقرب الذي ينتمي إليه والذي دفع به إلى سدة الحكم ، قد اختلفوا معه وحصلت بينهم مصادمات كبيرة . فأين هو مشروعه للمصالحة الذي كان يراه البديل الأفضل للمشروع الذي سعينا لان نؤسس قواعد راسخة له بمؤتمر نعقده يؤمن توافق العراقيين؟.لقد كان واضحا أن رئيس الحكومة (نوري المالكي)يسعى إلى إلغاء مشروع الجامعة العربية الذي كان قد تم الاتفاق عليه، فهو يتحمل الجزء الكبير من مسؤولية إفشال مشروع الجامعة العربية ، وكمثال على ذلك فان مشروع المالكي للمصالحة الذي قدمه للبرلمان، كان ينص في الفقرة الحادية عشر (إذا لم تخني الذاكرة) على ضرورة أن يتم تفعيل ما تم الاتفاق عليه في مؤتمر القاهرة بالتعاون مع الأمم المتحدة ولم يذكر

الجامعة العربية برغم أن ما تم الاتفاق عليه في مؤتمر القاهرة كان تحت مظلة الجامعة العربية،وعندما قرأت ذلك، عرفت أن من غير المعقول أن يكون ذكر الجامعة العربية ودورها قد سقط سهوا ، الأمر الذي دفعني لان أتحدث مع العديد من أعضاء البرلمان ،وطلبت منهم تفسيرا لذلك ،وبعد أن تولى البعض منهم التدخل لدى المالكي تم تعديل الفقرة لتصبح:(بالتعاون مع الأمم المتحدة والجامعة العربية).

لقد كانت كل المؤشرات تقول أن مشروع الجامعة العربية يجب أن يتوقف لان رئيس الحكومة (نوري المالكي) لا يريده نهائيا ، وقد تأكد لي ذلك بعد ستة اشهر من انسحابي من المهمة ، حيث كنت القي محاضرة عن العراق في نيويورك ،وكان عندي لقاءات في مجلس الأمن مع مسؤولين كبار في الأمم المتحدة،وتصادف ذلك مع إصدار قرار توسيع دور الأمم المتحدة في العراق ، وخلال اللقاءات مع بعض أعضاء من مجلس الأمن وكنت أقول لهم أن قرار توسيع دور الأمم المتحدة في العراق ، هو أكذوبة وأن الأمم المتحدة فاقدة للمصداقية، فقالوا لي (وهم يضحكون) لقد تم التشاور مع رئيس الوزراء العراقي (نوري المالكي) حول الأسماء المقترحة لتولي منصب سفير الأمم المتحدة الجديد في العراق ،وكان من ضمنهم مرشح مسلم من نيجيريا ، فاعترض المالكي بشدة قائلا : بأنه لا يريد أي مسلم، كونه يعرف تماما أن مجلس الأمن لن يوافق على تعيين إيراني (شيعي) ، لذلك فإن أي شخص مسلم آخر هو سني ، الأمر الذي أكد لي أن الرجل لم يكن راغبا بوجودي في العراق وكان يسعى لإفشال جهودي بكل الطرق، وقد سبق وان عبر لي بشكل مباشر عن الاستياء وعدم الرضى عن مهمتي ووجودي في بغداد، ففي احد اللقاءات معه وجدته متوترا وراح يقول لي: بأني أتجاوز حدود مهمتي الدبلوماسية وأني غير ملتزم بأعراف العمل الدبلوماسي وغير ذلك،كوني أتحرك على

الساحة العراقية والتقي كل الأطراف ومنها المعارضة لحكومته وللاحتلال، وهو أمر لا يقبل به ، فقلت له بأن مهمتي قد تم الاتفاق عليها بقرار قمة عربية والعراق وافق على هذا القرار ،وهو ينص على السعي لتأمين الوفاق بما يتضمنه ذلك من الاتصال بكل الأطراف،وان مهمتي سياسية وفق هذا التوصيف ،وليس عندي شيء أخفيه وليس لدي أجندة معينة سوى السعي لمساعدة العراقيين وتامين التوافق والمصالحة بينهم.

المصالحة ليست شعارات،وليست موضوعا يستعمل لتعميق الخلافات بين العراقيين، كما حصل فعلا بسبب مشروع 'المالكي وغيره من المشاريع التي أطلقتها حكومته، كجزء من عملية احتواء وتعويق اي جهد حقيقي يمكن أن يسهم في إنقاذ العراق ، فأصبح علينا بسبب من كل ذلك أن نتحدث عن عدد من المصالحات قاسمها المشترك هو الإقرار بالحاجة لبرنامج سياسي شامل يضمن مشاركة كل العراقيين ويوحدهم على مبدأ المواطنة ،ويوفر العدالة للجميع ويحترم التعددية، وليس عن برامج تشظي العراقيين وتزيد من قتامة جو انعدام الثقة والغياب الكلي لأي حوار بين الأطراف المختلفة. أن جميع مؤتمرات ما أطلقوا عليه بالمصالحة ، والتي عقدت برعاية حكومة المالكي وفي ظل مشروعه الذي لم يستطع الإجابة على سؤال أساسي مفاده : المصالحة مع من ؟.. أن هذه المؤتمرات لم تكن أكثر من حملات علاقات عامة ومناسبات للسفر والترفيه، فانظر مثلا المؤتمر الذي عقد للمصالحة في (هلسنكي) بفلندا في نهاية شهرنيسان/ ابريل ٢٠٠٨ ، الذين حضروه هم (٣٦) من نواب البرلمان العراقي ، وهم الذين وقعوا على وثيقته النهائية ، فهل كان هناك ما يستوجب السفر إلى (هلسنكي) لتوقيع هذه الوثيقة بينما هم يلتقون كل يوم في قصر المؤتمرات في بغداد ؟.. كما أن اغلب وثائق مؤتمرات المصالحة التي عقدوها (سواء المؤتمر الأول في هلسنكي عام ٢٠٠٧ أو في اليابان أو المؤتمرات التي عقدوها

في بغداد وغيرها) قد درجت على تأكيد : (استحالة المصالحة مع أولئك الذين تلطخت أيديهم بدماء الأبرياء) ، وكأنهم جميعا أبرياء من دماء العراقيين.لقد كانت قناعتي وما زالت ،إن أي إصلاح سياسي ودستوري لا يمكن أن يحصل إلا إذا تم أولا إصلاح القلوب وتطهيرها من نزعة الانتقام وتعميرها بثقافة التسامح، وهو الأمر الذي سيساعد كل العراقيين على الوصول إلى القناعة بأن استقرار ورفاه وطنهم يمر من خلال وحدتهم وتحابهم ، وان وحدتهم هي الضمان الوحيد لتحصين بلدهم من الداخل في مواجهة بيئة إقليمية معقدة،وان على كل من يدعي المسؤولية ويسعى إلى الحكم في العراق، أن يؤكد للعراقيين بكل أطيافهم ومكوناتهم، بان هدف المصالحة ليس اتخاذ موقف سلبي أو ايجابي ، من الماضي ومن الحاضر ، بل أن هدفها هو تجنب أن تبقى الجروح مفتوحة كي لا تتحول بدورها إلى مصدر للضغينة والبغضاء وتحول طريق المستقبل إلى طريق للآلام .وهذا ما كان يشكل بالنسبة لي جوهر مشروع الوفاق الذي سعيت له في إطار مساعدة العراقيين للخروج من المحنة . أن العراق يعيش في ظروف غير طبيعية تتطلب رجالات من نوع خاص ،يمتازون بحب العراق وبالتضحية والوطنية بشكل يقنع العراقيين فيسلمون بقيادتهم ،فالأمور قد وصلت بالعراقيين إلى أن ملايين منهم قد صاروا مهجرين داخل بلدهم وملايين أخرى قد صارت مهاجرة في دول الشتات والغربة، الناس مقسمين خلف (جدران كونكريتية) وفق تقسيمات طائفية، وهناك تفجيرات وعمليات قتل وجثث بالمئات تلقى في المزابل ،وهذه كارثة بكل المقاييس،ويجب أن تكون أولى الأولويات منصبة على معالجة كل ذلك وغيره الكثير ، لكن وللأسف فان من يتحملون(قانونيا) مسؤولية كل ما يحصل لا يشغلهم إلا تأمين حالهم، فيما لا يوجد حوار بين الأطراف العراقية (داخل العملية السياسية وخارجها) ، وحتى ما زعموا انه حوار (آنذاك) بين بعض العشائر من جهة

والجيش الأمريكي وربما أطراف من الحكومة ، هو في حقيقته ليس حورا لأنه بعيد عن المشروع الوطني العراقي، هو في الحقيقة اقرب إلى تفاهمات على صيغ معينة للتعامل ، كجزء من محاولة الولايات المتحدة تقليص خسائرها وتجنيب تعرض جنودها للقتل والإصابات.

*سألت السفير مختار لماني:أنت تركز على ضرورة الحوار،كيف يمكن أن يتحاور من يتبنون مقاومة الاحتلال ويعتبرون أن العملية السياسية باطلة وبالتالي فأن كل ما يرتبط بها من قوى وأحزاب ودستور وقوانين وقرارات هي باطل أيضا ، ومن يقفون عكس ذلك تماما ويساندون الاحتلال ويدعمون وجوده ويعتبرونه تحريرا..ما فائدة الجمع بين نقيضين تماما لا يمكن أن يلتقيان؟

- فأجاب: الحوار لا يعني بالضرورة تبني فكرة الطرف الآخر، بالعكس الحوار يعطي فرصة لإيصال الصوت بشكل مباشر. العراق وصل إلى وضع كارثي ، فإذا كانت القوى الموجودة لا تقبل بالحوار الجاد، وهو خطوة أساسية في المفاوضات،فكيف يمكن الوصول إلى حلول حقيقية للمشاكل القائمة وبالتالي إنقاذ البلاد والعباد من الوضع الكارثي. فباستثناء الاجتماعين الذين عقدا في القاهرة في تشرين الثاني / نوفمبر٢٠٠٥ وفي أب / أغسطس ٢٠٠٦، لم يحصل أن تلاقت العديد من الأطراف العراقية والكثير من الشخصيات العراقية القيادية والمؤثرة، وهذه من الأساسيات الضرورية لحل أي أزمة من الأزمات،فإذا لم تحصل لقاءات وحوارات جدية لحل هذه الأزمات فلن نصل لأي شيء. اذكر هنا أن حكومة المالكي أنشأت وزارة أطلقت عليها تسمية (وزارة المصالحة الوطنية) لكن ما قامت به هذه الوزارة فقط هو إطلاق موقع الكتروني على شبكة المعلومات (الإنترنت)، وراحت تحضر المؤتمرات التي تعقد غالبيتها خارج العراق تحت عنوان المصالحة العراقية ،والتي لا تحضرها سوى الأطراف الممثلة للقوى والشخصيات

الداخلة في العملية السياسية والمكونة للحكومة،وهذا شيء لا يؤدي بالتأكيد إلى تحقيق أي وفاق ومصالحة،فالمفروض أن تسعى هذه الأطراف (إذا كانت جادة) إلى محاورة الأطراف الأخرى التي خارج إطار العملية السياسية التي تجمعها، للاتفاق على طبيعة وشكل المرجعيات الأساسية التي يمكن الاتفاق عليها لإنقاذ العراق.اذكر إني تلقيت دعوات عديدة من قبل أطراف كثيرة في العملية السياسية وفي حكومة المالكي ، لحضور اجتماعات كانوا يقولون أنها خاصة بموضوع المصالحة الوطنية ، وكان أول سؤال أوجهه لهم : من الأطراف الأخرى سيحضر ؟ ، وعندما كنت أجد من إجاباتهم بأنهم وحدهم من سيحضرون هذه الاجتماعات، أقول لهم إنكم تضيعون الوقت وغايتكم هي عمل دعاية (بروباجندا)غير حقيقية لن تؤدي إلى حل المشاكل القائمة والخروج بالعراق من النفق المظلم الذي يعيش بداخله ،لان الركيزة الأساسية (وهي توافق العراقيين على مشروع وطني حقيقي) غير موجودة.

في مقر الممثلية

على مسافة (إلى الخلف) من مراب السيارات في منطقة علاوي الحلة (كراج العلاوي) و(جامع بنية) ،كانت ممثلية الجامعة العربية تتخذ من احد المباني مقرا لها وسكنا للسفير مختار لماني.وهي منطقة ساخنة جدا تقع على الحافة الشرقية للمنطقة الخضراء ، وطالما لا شهدت الكثير من أعمال القصف الشديد بالهاونات (كونها على الطريق المؤدية للمنطقة الخضراء التي تتحصن فيها مقرات الاحتلال والحكومة والسفارات والدوائر المهمة) ، كما تعرضت لكثير من التفجيرات سواء بالعبوات الناسفة أو السيارات المفخخة وغيرها الكثير ،كحال كل أجزاء المنطقة الحمراء،والتي أورد السفير مختار لماني أسبابه للسكن فيها.لكن قرار السكن في المنطقة الحمراء شيء ومواجهة الأخطار الفعلية شيء آخر ، والتي يستحضر السفير اللماني بعض صورها قائلا :

-البعثة لم تكن لديها أي خطط أمنية أو أجهزة إنذار أو موانع أو تحوطات ، هناك العديد من الجهات ولأسباب تتعلق بالعلاقات الشخصية التي تربطني بهم ، قدموا الكثير لمساعدتنا في هذا الجانب. اذكر أنني عندما ذهبت في أول زيارة للسفير البريطاني باعتبار أن بلاده من الأعضاء الدائمين الخمسة في مجلس الأمن وإنها الطرف الأساسي المساند للولايات المتحدة في الحرب على العراق واحتلاله ، وتتحمل بشراكة معها ،المسؤولية عن كل ما يحصل في العراق. وبعد أن رحب بي وجدته يسألني عن ما سيعمله الفريق الأمني الخاص بي لتأمين حمايتي ومقر الممثلية، وعندما أخبرته باني لا املك أي فريق امني وقد استأجرت بيتا في المنطقة الفلانية كمقر

للمثلية وسكن لي ، حتى وجدته يسألني متعجبا: (are you kidding).. هل أنت تمزح؟،فقلت له لا امزح أبدا انه الواقع ،فرد عليّ : أنت تقصد الانتحار إذن. واذكر أيضا أن السفير الفرنسي وعندما زارني في مقر البعثة ، أبدى استغرابه من الظروف الأمنية المتردية لمقر البعثة،وقال لي : بأنه سيبعث الفريق الخاص بسفارته ليدرسوا الوضع الأمني للبعثة، ويحددوا الأشياء التي يجب أن توفر وتؤخذ بنظر الاعتبار لكي تكون البعثة في مستوى معقول من الأمن.وفعلا جاء ذلك الفريق الأمني المتخصص واستغرقوا ساعات طويلة من النهار وهم يدققون كل زاوية في البناية ،ثم توصلوا إلى جملة من النقاط ثبتوها في تقرير يحدد النواقص الأمنية وما الذي يجب فعله،وعندما قرأت التقرير وجدت أنهم يؤكدون على أن البيت الملاصق لمقر البعثة الذي كان بيتا غير مكتمل البناء ومهجور ، يعتبر مكانا مثاليا لأي جماعة أو أفراد يريدون الوصول بسهولة إلى مقر الممثلية وفعل أي شيء فيها ، كما أن تقريرهم قد تحدث عن ضرورة وجود أبواب كهربائية في مقر الممثلية وأسلاك شائكة مكهربة وزجاج ضد الرصاص وقواطع وموانع عديدة وتحوطات كثيرة تستوجب العديد من الترتيبات والأجهزة ، التي لم نكن نملك شيئا منها ولا نملك ما تحتاجه من اموال لتأمينها، لذلك تركنا الأمر بيد الله سبحانه وتعالى فهو خير الحافظين.أما على مستوى أفراد الحماية (وكانوا من البيشمركة الكردية الذين أرسلتهم وزارة الخارجية لتامين حمايتي وحماية الممثلية)والذين كنت اعتقد أنهم (الستة) يشكلون فريقا امنيا جيدا ، إلا أن التقرير أظهر أنهم بلا فائدة ، حيث لا يملكون سوى ستة بنادق (اثنان منها بلا ذخيرة واثنان عاطلة) .

*وهل تعرضتم إلى تهديدات أو محاولات للتصفية ؟

-المحاولات كانت شبه يومية ، كانت التهديدات عبر الهاتف تتوعدني بالتصفية إذا لم أنهي مهمتي وأغادر العراق .وفي مرة وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف

الليل ، جاءت ثلاث أو أربع سيارات وفيها أعداد من الأشخاص يسألون عن بيتي ، كان حظر التجوال في تلك الساعة ساريا الأمر الذي يجعل المرء يتسائل: كيف استطاعوا هؤلاء إذن التجول في سياراتهم في حينها ؟ . وبالصدفة فأن هؤلاء سالوا الحماية الخاصة بوزارة الخارجية التي لا يبعد مقر بعثتنا عنها كثير ا ،وكان كل أفراد حماية الوزارة من الأكراد الذين راح احدهم يكلم زميلا له من الحماية باللغة الكردية ، الأمر الذي جعل هؤلاء الذين كانوا يسألون عن مكان سكني ،يرتابون من الأمر من دون أن يفهموا أن الرجل يستفسر من زميله عن المكان الذي يسالون عنه ، وقدروا أن أمرهم قد انكشف فهربوا. وحدث في مرة أخرى أن كان عندي موعد مع أعضاء في الحكومة في المنطقة الخضراء، فاتصل شخص بالسكرتيرة الخاصة بالممثلية وعلى تلفونها الخاص وكانت معي،وقال لها: نحن نعرف أن السفير مختار لماني سيذهب لموعده في المنطقة الخضراء ، ونحن نتكلم من مجلس الوزراء لتسهيل دخوله إلى المنطقة الخضراء ونريد أن نعرف من أي طريق سيأتي وما نوع وشكل السيارة التي سيأتي بها وهل ستكون معه حماية وكم عددهم، فاستغربت السكرتيرة كل هذه الأسئلة التي لم يسبق أن وجهت إلينا ونحن نذهب لأي لقاء في المنطقة الخضراء بخاصة وأنا أحمل بطاقة تسمح لي بدخول المنطقة الخضراء ولست بحاجة لأي تصريح، لذلك جاءت وأخبرتني بالموضوع ،وعندما اتصلنا برئاسة الوزراء نفوا بشكل قطعي أن يكون أي احد منهم قد اتصل ،وأكدوا على ضرورة الحذر لان من الواضح أن هناك جهة معينة تريد أن تعرف طريق ووقت حركتي لتنفيذ اعتداء معين ،الأمر الذي جعلني اتخذ قرارا بالذهاب بطريقة غير التي كنت معتادا أن أذهب بها .

*هل أن غياب الدعم اللوجستي(والأمن جزء مهم منه) الذي لم توفره الجامعة العربية لكم ،كان عاملا معوقا لمهمتكم وسببا من الأسباب التي وضعتموها في

اعتباركم وأنتم تنسحبون فيما بعد من المهمة ؟

-لا ،أبدا لم يكن ذلك في حساباتي عندما قررت الانسحاب من المهمة . موضوع الأمن ربما كان شأنا صعبا وبعيدا بالنسبة للإمكانات المتوفرة للجامعة، ولكن أنا طلبت تزويدي بـ (جهاز فاكس)مشفر أستطيع أن ابعث عليه مراسلاتي ولم احصل عليه، فضلا عن أشياء أخرى ضرورية كالسيارة المصفحة التي لم تصلني إلا بعد سبعة أشهر من وجودي في العراق .لقد كنت اؤمن مراسلاتي مع الجامعة العربية بطريقة مضحكة ومتعبة في نفس الوقت ،ولولا وجود السفير علي الجاروش مدير الإدارة العربية في الأمانة العامة لجامعة الدول العربية والذي يتولى مسؤولية ملف العراق وكان يبذل كل ما يستطيع للمساعدة برغم الإمكانات القليلة المتوفرة لديه ،وهو صديق عزيز مؤمن جدا بمهمتي ومحب للعراق والعراقيين بشكل كبير وقد لقيت منه كل التشجيع والحرص على إتمام المهمة ، فلولا وجود هذا الرجل ما كان لي أن أستطيع تامين اتصالاتي بالجامعة وأنا في بغداد ، حيث كنت ابعث بمعلومات وكان بعضها في منتهى الخطورة أحيانا ، على شكل كلمات متناثرة ،سطر عبر بريد الكتروني معين وسطر آخر عبر بريد الكتروني آخر ،وكلمة على الفاكس ، ثم يتولى السفير علي الجاروش تجميع هذه الكلمات والأسطر بعد أن اتصل به هاتفيا وأشير له بأن السطر الفلاني يأخذ التسلسل واحد والسطر الفلاني يأخذ التسلسل الثاني وهكذا.

إلاّ - السفير الإيراني

كان أول شيء فعله السفير مختار لماني عندما وصل العراق ، هو التصريح بأن قدومه للعراق ليس لإقامة ندوة فكرية أو ثقافية أو الحديث عمن عمل ومن قال ومن اخطأ ومن أصاب،فهذه مهمة متروكة للمؤرخين.وقال : (أنا هنا في وسط كارثة يعيشها الشعب العراقي وبمرارة شديدة ، أنا قادم وعندي مشروع للوفاق الوطني بين العراقيين،وكل من يؤمن بهذا الشيء من خارج العراق أو من الداخل ويحب أن يساعد في ذلك ، أهلا وسهلا) . وعلى أساس ذلك بدأ السفير مختار لماني بالتحرك والاتصال بكل الأطراف المؤثرة في الساحة العراقية أو التي لها شان دولي معروف ، فكان التحرك باتجاه سفراء الدول الخمسة الدائمة العضوية في مجلس الأمن وباقي سفراء الدول الأوروبية في العراق ودول جواره الإقليمي من غير العرب (إيران وتركيا)حيث لم يكن في بغداد آنذاك أي سفير عربي غير اللماني،وبعد زيارته لهم جميعا ، قاموا بدورهم برد زيارته إلا السفير الإيراني الذي لم يكلف نفسه رد الزيارة كما هو متعارف عليه دبلوماسيا ، حتى ولو على سبيل المجاملة الشخصية.

عندما سألت السفير مختار لماني عن تفسيره لموقف السفير الإيراني ، قال :أنا كنت أتسائل أيضا عن السبب ، فعندما كنت سفيرا لمنظمة المؤتمر الإسلامي في الأمم المتحدة ،وصادف أن تراست إيران المنظمة لثلاث سنوات ، دعيت عدة مرات من قبل الرئيس الإيراني (آنذاك) محمد خاتمي، لزيارة إيران في إطار مبادرة حوار الحضارات واهتمام خاتمي بالموضوع ، وكان الإيرانيون يعرفوني جيدا،ولكن بالنظر للوضع والسياسة الإيرانية داخل العراق بعد الاحتلال ، صار الإيرانيون يعرفون أوزان

الآخرين بالقياس إلى حجمهم ووزنهم داخل العراق ، ومن هذا المنطلق فما أمثله ليس له وزن لديهم ، لأنهم يعرفون جيدا عدم وجود جدية لدى العرب الذين أمثلهم في التعاطي مع العراق أو في دعم مهمتي ، كما يعرفون بان من أمثلهم ليس لهم وزن مؤثر على الساحة العراقية،وبالتالي لماذا يمكن أن ينظروا إلي كممثل لطرف يحتاجون أن يتفاوضوا معه ،أو يمكن أن يعاونهم فيما لديهم من مشاريع، الواقع أنا لم أكن أملك أي شيء باستثناء المبادرة الخاصة بالوفاق بين العراقيين .وطوال السنة التي قضيتها في العراق لم التق أي مسؤول إيراني ، حتى عندما انعقد اجتماع وزراء خارجية جوار العراق في طهران ،وذهبت ضمن وفد الجامعة العربية ، لم التق المسئوولين الإيرانيين ، وعندما ذهب الأمين العام للجامعة العربية السيد عمرو موسى للقاء الرئيس الإيراني ، لم اذهب معه حتى لاتصل رسالة خاطئة باعتباري امثل الجامعة في العراق.

لقد كنت حريصا كل الحرص حتى مع السفراء الآخرين الذين التقيتهم كثيرا،وبخاصة مع السفير الأمريكي في العراق (خليل زاد) [1] ،على توضيح حقيقة

(1)في٢٢اذار/ مارس ١٩٥١ ، ولد زلماي خليل زاد في مدينة مزار شريف في أفغانستان، كان والده موظف حكومي في عهد محمد ظاهر شاه. وهو من قبيلة البشتون الأفغانية ومسلم الديانة. هاجر إلى الولايات المتحدة في سن مبكر،وعاش ودرس هناك وحصل على شهادة الدكتوراه من جامعة شيكاغو بعد أن كان قد أكمل دراسته الجامعية الأولية بالجامعة الأمريكية في بيروت. عمل مديرا في شركة نفط أمريكية كبيرة هي شركة يونوكال، ثم تولى وظائف في وزارتي الخارجية والدفاع في عهد الرئيسين ريجان وبوش الأب. في عام ١٩٨٤ انضم إلى السلك الدبلوماسي الأمريكي،وتبوأ العديد من المناصب في ادارة الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش، حيث عمل في مجلس الأمن القومي الأمريكي ثم سفير الولايات المتحدة في أفغانستان (مباشرة بعد الغزو الأمريكي) وسفير الولايات المتحدة إلى العراق ثم سفير الولايات المتحدة في الأمم المتحدة. ويعد زادة أحد أركان المحافظين الجدد في الإدارة الأمريكية ومشارك رئيسي بوضع خطط وإستراتيجية غزو أفغانستان والحرب على العراق واحتلاله، فقبل غزو العراق عام٢٠٠٣ كان زلماي خليل زاده (الذي يعرف في أوساط الحكومة في وشنطن باسم «كينج زاده» أو الملك زاد) مبعوثا أمريكيا إلى ما سمي بالمعارضة العراقية.

الأخطاء الأمريكية الرهيبة في العراق،ولم يكن ذلك يمنع السفير الأمريكي وأي من المسؤولين الأمريكيين من اللقاء بي مرات أخرى،فقد كانوا يعرفون جيدا مواقفي القوية ضد الحرب التي قاموا بها ضد العراق،حتى عندما كنت في الأمم المتحدة، والمهم كان عندي بالأساس أن ابذل كل جهدي لتنمية العلاقات العراقية-العراقية،وكنت أرى ذلك هو الضمانة الوحيدة لعدم الانزلاق الخطير ، وان يصبح العراق ميدانا لحروب الآخرين . حروبا لا علاقة للشعب العراقي بكل طوائفه بها ، بالذات الصراع الأمريكي –الإيراني،فما بينهم من صراعات بدلا من أن تكون في إيران أو في أمريكا ،كانت تدور على أرض العراق وعلى حساب العراقيين.

لقد كنت في علاقتي مع كل السفراء الأجانب الذين كانوا في العراق عام ٢٠٠٦ ، حريصا على أن يعرفوا أني ضد الاحتلال والوجود الأمريكي في العراق ،وكانت ليّ معهم لقاءات وحوارات عديدة ، ومنهم السفير الأمريكي آنذاك (زلماي خليل زاد)، الذي كنت اعرفه والتقيت به سابقا عندما كنا نذهب إلى أفغانستان ضمن المساعي الدولية والإسلامية لإيقاف الحرب هناك،وكان(زلماي) سفيرا للولايات المتحدة هناك .وكنت التقية أيضا في الأمم المتحدة عندما كنت سفيرا للمؤتمر الإسلامي هناك،وكانت (برغم اختلاف وجهات نظرنا)تربطنا علاقة ود واحترام متبادل،وكنت ألمس فيه محاولة لفهم وجهة نظرنا إزاء ما يحصل في العراق وإزاء الوجود الاحتلالي الأمريكي هناك،ومحاولة معرفة ما نقترح عمله،والتي كنت في كل تفاصيل هذه المقترحات،أشجع على الحوار بالرغم من قناعتي بأن الحوار لا يعني بالضرورة أن يتم الاتفاق مع من تحاوره،وقد كان السفير (زلماي) متفقا مع طروحاتي ورؤيتي بشأن الحوار وبنى عليها بعض المواقف،مثل محاولة اللقاء بـ (الشيخ الدكتور حارث الضاري) الأمين العام لهيئة علماء المسلمين في العراق،وتوليت بنفسي أمر إجراء الاتصالات لتحقيق ذلك اللقاء في الأردن حيث

يتواجد الشيخ الدكتور حارث الضاري، الذي اشترط أن أكون حاضرا في اللقاء وان يأتي السفير (زلماي خليل زاد) بشيء بجديد،ولم تكن لدي أوهام عن هذا اللقاء،فانا أعرف جيدا أن هناك خلاف كبير جدا في وجهات النظر بين الجانبين ، ولكني كنت أرى أن أي حوار مع شخصية مثل الشيخ الضاري وما يمثله من هيئة يعرف الأمريكيين أنها ضد مشروعهم الاحتلالي بكل تفاصيله ويعرفون أنها تشترط إنهاء الاحتلال لبداية أي شيء، كان سيساعد في جعل الأمريكيين يذهبون للقاء الشيخ الضاري للاستماع فقط إلى رأي يمثل الجانب الآخر ،وليس في ذهنهم الذهاب لإقناع الشيخ الضاري للدخول بمشروعهم، فالسفير زلماي والأمريكيين من خلفه ، لم تكن عندهم أوهام (أيضا) ،وهم يعرفون جيدا صلابة الشيخ الضاري ومواقفه المبدأية ووضوح رؤيته وتوجهاته الرافضة قطعا للاحتلال الأمريكي للعراق . فضلا عن كوني كنت أرى في مثل هذا الحوار فرصة لاستكشاف أشياء قد تساعد العراقيين في حوارهم مع بعضهم. وفي النهاية لم يتحقق اللقاء ،وعند انسحابي من مهمتي في العراق ، ابلغني احد أعضاء هيئة علماء المسلمين ، أن الشيخ الدكتور حارث الضاري والهيئة ، لم يعودوا يهتمون بحصول هذا اللقاء .

أما عن لقاءات السفير مختار لماني مع باقي السفراء الأجانب في العراق وبخاصة سفراء الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن الدولي ، وما استشفه من انطباعات عن رؤيتهم للوضع في العراق وقناعاتهم بما تفعله أمريكا هناك ، فيوجزه بالقول :

-كان لفرنسا أيام حكم الرئيس (جاك شيراك) ، مواقف معروفة في مجلس الأمن ضد الحرب على العراق ، وقد كنت المس هذه المواقف عند السفير الفرنسي في بغداد، الذي كان مؤيدا بقوة لمهمتي ، على أساس أنها تساعد في تقريب وجهات

النظر، وكان بحق سفيرا متميزا وله خبرة واسعة بعموم المنطقة العربية وهو يجيد التحدث باللغة العربية بكل طلاقة. غير أن ذهاب(شيراك) ومجيء (ساركوزي) قد غير من السياسة الفرنسية بنحو كبير جدا ،ومنها سياسة ووجهة نظر الحكومة الفرنسية إزاء ما جرى ويجري في العراق . أما باقي سفراء الاتحاد الأوروبي ، فقد جمعتني بهم بعض لقاءات المجاملة فقط ، وأكثرهم (سفراء المنطقة الخضراء) وليس لهم اتصال حتى بالأطراف العراقية ، وكانوا عندما نلتقي يسعون إلى السؤال عن رؤيتي للوضع في العراق ،وكنت احرص أن أقدم لهم شرحا وافيا بغرض إيصال الحقيقة عن العراق ، أملا في أن يقوم هؤلاء السفراء بإيصالها إلى حكوماتهم.

الجوار المعقد

ثمة سؤال طالما تداولته العديد من الدوائر السياسية والبحثية وقبل ذلك تداولته السنة العامة في أحاديثهم عبر التاريخ كلما مر العراق بمحنة وكان لجواره الجغرافي موقع فيها.. يقول: هل ظلم العراق بجواره أم أن جوار العراق ظلموا به؟ [1].

لا يُمكن بطبيعة الحال إنكار حقيقة أن بعض دول الجوار العراقي كان لها بعد احتلال العراق عام ٢٠٠٣ أكبر الأثر في المشهد العراقي (بنحو مباشر أو غير مباشر)، وفي صناعة الثوب السياسي الذي ارتداه العراق، بخاصة أن حال العراق بعد الاحتلال قد صار محكوما بوجود وسلطة الولايات المتحدة الأمريكية (باعتبارها البلدَ الغازي)، وظَل هذا الوجود مُبررًا لإثارة مخاوف دول الجوار الجغرافي العراقي من الوجود الأمريكي الملاصق وما ينطوي عليه من أبعاد تاريخية وإيديولوجية، التي ترجح أمكانية اندفاع الأمريكان خارج العراق، وهو آمر كان مُعلنًا من قِبَلهم وبصراحة، مما جعل بعض دول الجوار العراقي تسعى بكل الوسائل المتاحة لديها من اجل عرقلة هذه التوجُّهات الأمريكية، على حساب العراق والعراقيين.

بعض دول الجوار العراقي (وبنحو خاص إيران) تجاوزت حدود هذا الإطار إلى الرغبة في ابتلاع البلد بالكامل، بالاعتماد على قوى وأحزاب وشخصيات (عراقية في

(1) يمتد العراق من خط طول (٤٥ °٣٨) إلى (٤٥ °٤٨)، وله حدود مع إيران بطول ١٤٥٨ كم ومع الأردن بطول ١٨١ كم ومع الكويت بطول ٢٤٢ كم ومع السعودية بطول ٨١٤ كم وسوريا بطول ٦٠٥ كم ومع تركيا بطول ٥٨ كم.،وتشكل الصحراء جزءا كبيرا من مساحة العراق وله ٥٨ كم مطلة على سواحل الخليج العربي، ويحد العراق من الجنوب السعودية والكويت ومن الشمال تركياومن الغرب الأردن وسوريا ومن الشرق إيران.

جذورها أو في مظهرها) سبق وان أعدت لمثل هذا اليوم ، استعملت بوسائل عديدة في إزاحة كل القوى العراقية الوطنية المعارضة للنفوذ الإيراني في العراق ، ولتثبيت نفسها ومن تمثلهم على الساحة العراقية كقوة لها وزنها المؤثر الذي لا يمكن تجاوزه،كجزء من محاولة تحقيق هدف تجنيب أنفسهم إمكانية التمدد الأمريكي باتجاههم ،والدخول في مساومة مع الأمريكيين سواء من خلال ممارسة(لعبة عض الأصابع معهم)أو استدراجهم إلى صراع مسلح لبعض الأوقات على الأرض العراقية وعلى حساب العراقيين،من أجل تحقيق المكاسب الذاتية وتحقيق المصالح القومية لإيران والمعبر عنها بمطالبة إيرانية علنية بالاعتراف لها بدور إقليمي متميز وعدم التعرض للبرنامج النووي الإيراني، وهو ما خلّف أكبر الآثار وأخطرها على حاضر العراق ومستقبله، فالسياسة التي اتبعتها إيران في العراق ،والتي يتولى الإيرانيون وصنائعهم في العراق رعاية شجرتها التي زرعوها منذ الاحتلال وقدموا لها كل أسباب الرعاية،كانت ولازالت محكومة بعقد الماضي القريب والبعيد وبعوامل الجغرافيا والايدولوجيا والأطماع والمصالح الآنية والمستقبلية، وبما يجعل العراق بالنسبة لإيران:

١- ساحة لتصفية حسابات الماضي معه وبخاصة القريب منه الذي مازالت شواهده وتداعياته حاضرة ،والذي أعادت طهران فتح ملفاته التي اعتقد الكثيرين إنها أغلقت مع صدور قرار مجلس الأمن الدولي (٥٩٨) في أب / أغسطس ١٩٨٨ الذي أنهى فصول الحرب العراقية الإيرانية بعد ثماني سنوات من الصراع الرهيب، والذي أعلنت إيران قبولها به بإيعاز من مرشدها الأعلى (خميني) الذي قال :بأنه اضطر إلى (تجرع السم) بالموافقة على هذا القرار، بعد أن ظلت إيران طوال ثماني سنوات ترفض كل القرارات والدعوات الخاصة بإنهاء الحرب مع العراق .

٢- ساحة لتصفية الحسابات مع الولايات المتحدة،بعد أن صارت جيوشها على

مرمى من الحجر الإيراني ،وربما صارت رهينة لإيران بعد أن كانت إيران كلها رهينة للولايات المتحدة في بداية عام ٢٠٠٣ ، حيث كانت الجيوش الأمريكية على حدود إيران الشرقية مع أفغانستان وعلى حدودها الغربية مع العراق.

٣- فرصة إيرانية نادرة لإعادة رسم خارطة التوازنات الإقليمية من جديد، في ظل غياب القوة العراقية الرادعة ، وفي ظل الحاجة الأمريكية المتزايدة للخدمات الإيرانية في العراق لأجل تثبيت مشروع الاحتلال وجعل اذرعه تمتد بملمس ناعم إلى كل أجزاء العراق من دون حساسية أو معارضة، وعدم تفاقم المأزق الأمريكي في العراق ،واضطرار الولايات المتحدة الأمريكية إلى دفع كلف جديدة وتقديم خسائر بشرية ومادية إضافية ،يمكن للسياسة أن تيسر أمر عدم تقديمها،ويستوجب كل ذلك اعتراف وتسليم أمريكي ومن ثم دولي وإقليمي بدور إيراني متميز في المنطقة،وما يتبع ذلك من مكتسبات إيرانية وترتيبات تخدم وتشجع على القبول بما تريد طهران أن يدخل في سلتها حتى ولو كان على حساب حقوق الآخرين ومصالحهم،ومن بين ذلك وفي مقدمته موضوع البرنامج النووي الإيراني ورغبة طهران بجعل العراق ورقة للمساومة فيه.

أما تركيا(الجار غير العربي الآخر للعراق) فلها تأثير في الشؤون العراقية، تختلفت دوافعه عن بقية دول الجوار،فبرغم أن لها أهدافها السياسية والاقتصادية والأمنية في تعاطيها مع جارها العراق . إلا أن ما يشغل تركيا بالدرجة الأساس هو سعيها وتركيزها بمختلف الوسائل للحيلولة دون تقسيم العراق، خوفا من انفلات إقليم كردستان العراق وذهابه إلى إعلان الانفصال واعتباره أمرا واقعا ، وما يشكله ذلك من خط احمر كبير لا يمكن لا نقرة مهما كان شكل الحكم فيها أن تسمح بتجاوزه، لان ذلك يمس بأمنها الوطني ،بما ينطوي عليه من تأثير على وضع الأكراد الأتراك الذين سيجدون بالأنموذج الانفصالي العراقي دالة للمطالبة

والسعي للانفصال أيضا، لذلك يتزايد القلق في تركيا من أي إشارة تنم عن استجابة لأي طرف كان للمطالب الكردية بضم كركوك الغنية بالنفط إلى كردستان العراق، لان ذلك يعني بالضرورة توفر البنية الاقتصادية الرصينة لأكراد العراق التي تجعلهم في وضع أكثر استقلالية عن الحكومة المركزية في بغداد، وبما يسهل عليهم أمر التفكير المستمر بالانفصال عن العراق والسعي لتامين متطلباته وجعله أمرا واقعا.

إن البيئة الإقليمية للعراق كانت على مدار التاريخ ،متشابكة وتكمن فيها عوامل المواجهة، بحكم أن العراق هو دولة عربية وانتماء شعبه وتاريخه النضالي عروبي ، فيما جواره الإقليمي غير العربي(وبخاصة إيران) ،له أطماعه في العراق أو في عموم المنطقة العربية التي يشكل العراق بوابتها، الأمر الذي صير العراق ساحة تبرز فيها بوضوح شديد التأثيرات الإقليمية لا سيما بعد الاحتلال الأمريكي للعراق وتداعياته على منطقة الشرق الأوسط عموما والمنطقة العربية بنحو خاص.

وبحسابات نسب التأثيرات وحجم التواجد لهذا الطرف أو ذاك على الساحة العراقية بعد الاحتلال عام ٢٠٠٣ ،نجد أن (دُوَل الجوار العربية) بغض النظر عن حجمها وتأثيرها الإقليمي أو وزنها داخل المنظومة العربية ، لا يشكل تأثير أي منها في العراق بعد الاحتلال ،نسبة يمكن النظر إليها على إنها ممكنة للمقارنة مع النسبة والوزن الإيراني داخل العراق، وقد تنوَّعت أدوار دول الجوار العربي للعراق في تعاطيها مع الوضع بعد ٢٠٠٣ ، فهناك من نجد مواقفها مقاطعة (كالكويت مثلا) بسبب بقاء سياساتها إزاء العراق أسيرة للماضي ، وهناك من ظل تعاطيها مع الشأن العراقي في الإطار السياسي الحذر من خلال الاعتراف بالواقع الجديد في العراق لاعتبارات تتعلق بالدرجة الأساس بضغوط أمريكية ، وهناك من يتعاطى مع العراق لاعتبارات تتعلق بمحاولات درء المخاطر الناتجة عن الوضع في العراق

وتداعياته ،أو بحصر التعاطي أن أمكن في حدود المصالح الاقتصادية وتبادل المعلومات الأمنية ، غير أن كل الدول العربية التي تنضوي في إطار تسمية دول الجوار العربي للعراق ، فضلا عن كل الدول العربية الأخرى التي لا ترتبط مع العراق بحدود مشتركة ، يجمعها قاسم مشترك واحد يتمثل في رغبتها الأكيدة في أن يستقر الوضع في العراق ، وان يخرج من متاهة الفراغ السياسي ، وربما يشترك الجميع أيضا في الرغبة بان لا يعود العراق كسابق عهده ،دولة قوية لها اشتراطاتها وحساباتها التي لا يمكن تجاوزها على صعيد المنظومة العربية،وهي رغبة تسر إيران كثيرا مثلما تسر إسرائيل، فالنفوذ الإيراني يصبح أكثر قوة كلما كانت حكومة العراق ضعيفة،وان الامتداد الإيراني على حساب العرب عبر التاريخ لم يحصل إلا عندما يكون العراق ضعيفا .

السفير مختار لماني وفي إطار الحديث عن الجوار العراقي الصعب، ومن وجد من دوله متغلغلا ومن وجده متورطا أو متخندقا أو متفرجا،والرؤية التي خرج بها عن حقيقة التعاطي العربي مع محنة العراق ومهمته التي جاءت تنفيذا لقرار قمة عربية، قال وهو يوثق شهادته عن تلك السنة التي عاشها في العراق :

-المتفرج على محنة العراق، هو (بالتأكيد) الدول العربية، سواء كانت من دول الجوار الجغرافي أو لم تكن، وإيران كما هو معروف هي المتورط والمتغلغل، حتى أني سمعت مقولة في الولايات المتحدة يكررها العديد من المحللين السياسيين الأمريكيين هي : «أن أمريكا هي من قرر وعمل الحرب على العراق لكن من انتصر في الحرب هي إيران والقاعدة»،واني أجد أن جانب كبير من هذه المقولة صحيح. أما تركيا فلديها خطوط حمراء بالنسبة لكركوك وبالنسبة للعراقيين التركمان وبالنسبة لسياسة الأحزاب الكردية في شمال العراق،وفي هذا الإطار تبدو سياسة تركيا محدودة إزاء العراق ، لكن يجب أن لا ننسى أن تركيا في فترة من الفترات كان لديها

كلام مخيف عن حقوق لها في الموصل وعن كركوك، وقد سمعت في إحدى الندوات التي حضرتها في اسطنبول، كلاما تركيا يتحدث عن كون تركيا لم تعترف أبدا بالموصل كمدينة للعراق ، وان أنقرة لها الحق في تقرير مصير كركوك والتركمان(وهم مواطنون عراقيون طبعا)،وبرغم ذلك لا يمكن مقارنة تدخل تركيا بالتدخل الإيراني في العراق ودورها التخريبي.

العرب كما ذكرت كانوا متفرجين وبشكل سلبي للغاية على المحنة العراقية وكنت أتعجب من مواقفهم ، فالذي حصل مثلا في موضوع(الديون التي على العراق) والتراكمات التي حصلت عليها من فوائد وغيرها والمطالبات التي حصلت بإلغاء هذه الديون في مؤتمر مدريد للدول المانحة ،كنت تجد مواقف ايجابية من روسيا واليابان ولا تجدها من دول عربية ، وهذه مواقف كانت تؤلمني. بعض العرب كانوا يقولون نحن لنا ديون وعلى العراقيين أن يسددوها مهما كان وضع العراق،لأنهم كما يقولون قد عانوا من العراق ، فحتى بافتراض أن كل ذلك صحيح، فلا يمكن للكويتيين (مثلا) أن يقولوا إنهم عانوا أكثر مما عانى الشعب العراقي، ولذلك كانت هذه القضية تتطلب مواقف عربية ذات بعد استراتيجي، أن الواحد لا يمكن أن يختار جيرانه لكنه يجب أن يعرف كيف يستثمر ما في هذه الطبيعة من هذه العلاقات.

إن العرب جزء من الجوار الجغرافي للعراق وليس الجوار كله وما يحصل في العراق يعنيهم تماما، وبالتأكيد فان حتى العرب الذين لا يشتركون مع العراق بالجوار الجغرافي المباشر ، معنيون بكل ما يجري في العراق،وفي التعاطي المسؤول مع وضع العراق المعقد، الذي لا يقتصر فقط على طبيعة المنطقة، حيث إيران من جهة وتركيا من جهة والدول العربية من جهة أخرى، والكل لهم أراء ووجهات نظر مختلفة إزاء الوضع في العراقي، لكن من الضروري أن ينتبه الجميع ويفهموا جيدا

أن العراق وعبر التاريخ عندما ينجح ويزدهر يكون تأثيره ايجابي جدا على عموم الإقليم وعندما يفشل يكون تأثيره سلبي على الجميع ، وهذه حقيقة يؤكدها التاريخ،وأظن أن تداعيات ما وصل إليه العراق من حال مأساوي، ستنعكس على الجميع ،وان النار المشتعلة في العراق سيتطاير شررها وستمسك بثياب الآخرين ، فالعراق ليس دولة طارئة أو كيان ليس له وزن أو أهمية، وليس دولة مصطنعة، مثلما قال بعض المسؤولين الأمريكيين وحاول حاكم العراق الأمريكي(بول بريمر) أن يرسخه من خلال العزف على وتر الطائفية والتقسيمات العرقية. فالعراق ليس كما ظن البعض، يمكن احتواء ما يحصل فيه وحصره، ولا يمكن أن تمتد السنة النيران المشتعلة فيه مهما علت وكبرت أبعد من حدوده ،مثلما هو حال الصومال (مثلا) برغم احترامي الشديد للشعب الصومالي وتفهمي للمأساة التي يعيشها بلدهم، فأنا مؤمن تماما أن الأزمة الصومالية لن تؤثر على العلاقات الدولية والإقليمية، أما العراق فله تأثير واسع وكبير ، فهو ينتمي لمنطقة من اخطر الأماكن في العالم ، ليس فقط سياسيا وحضاريا وإنما حتى اقتصاديا، فالفوضى في العراق لابد أن تؤثر على العالم كله.

*هل كنت تشعر أن العرب ينظرون إلى الوضع في العراق مثلما رايته ،ويدركون أن النار المشتعلة في العراق هي على أبوابهم جميعا ولابد أن يسعوا بخراطيم المياه بسرعة ، أم أنهم كانوا يعتقدون بان الوضع في العراق لا يعنيهم ، وحتى وان كان يعنيهم فإنهم لا يملكون فعل شيء؟

-يمكن أن تكون نظرة العرب وتوجهاتهم إزاء المهمة التي أوكلت إلي في العراق، خير معبر عن طبيعة تعاطي العرب مع العراق ومحنته.النظرة والتوجهات إزاء المهمة لم تكن جدية أبدا، فبعد سنة قضيتها في العراق (وهي مدة طويلة) تأكدت تماما غياب جدية التعامل مع الوضع العراقي عند العرب ، وهذه من بين الأشياء

التي كانت تؤلمني جدا وتركت في نفسي أثرا بالغا،وجعلتني اتجه إلى قرار الانسحاب من المهمة من دون تردد ، فالمرء يجب أن لا يستمر ولا يكذب على نفسه وعلى الآخرين عندما لا يجد إمكانية لفعل الشيء الصحيح والمطلوب،وبخاصة لشعب العراق وهو يعاني محنة كبرى تمس بكل جدية حياته وحاضر ومستقبل بلده. وكان يؤلمني(أيضا) أن يقول البعض أن مجيء العرب إلى العراق سيصب في جيب أمريكا لان الوجود العربي ما كان سيتحقق في العراق إلا لمعاداة إيران ودورها في العراق ،وقد كنت أتمنى أن يقولوا ويؤمنوا أن التواجد 'لعربي في العراق هو حالة طبيعية وهو تواجد لمساندة الأهل (العراقيين)في محنتهم وتحمل جزء من مسؤولية النهوض بالعراق وصد الأذى عن شعبه،ولكن ولأسف كنا جميعا نساعد في تكريس العراق ميدانا لحروب وصراعات لا علاقة للشعب العراقي بها.

ربما يكون غياب العرب عن الساحة العراقية أحد الأسباب المهمة التي فسحت المجال أمام وجود إيراني متغلغل وادوار إيرانية تخريبية، لكن ذلك لا يعكس كل الحقيقة ، فالأمور ليست بهذه البساطة. فمن حق أي جار كما هو معلوم أن يكون لديه اهتمام بما يحصل لجاره، بخاصة إذا كان بينهما حدود مشتركة وطويلة ، لكن هذا الاهتمام عندما يتحول إلى أطماع والى محاولة استعمال الآخر لتسويغ سياسات معينة، فهذا غير مقبول نهائيا ،وهو ما تمارسه إيران ضد العراق . فمن حق إيران وتركيا ومن حق العرب،الاهتمام بما يحصل في العراق ، ولكن من دون التحكم في مصير شعب العراق الذي يملك لوحده الحق في تحديد مصير بلده وشكل سياسته وتوجهاتها.

إن من الأشياء التي تخلق الشعور بالإحباط، تلك الاجتماعات الخاصة بدول الجوار العراقي ، فبدلا من تقديم مقترحات لمساعدة العراق والعراقيين ، نرى هذه الاجتماعات مملة في تفاصيلها وحصادها غير مثمر ،فالبيانات الصادرة عنها ليست

إلا مجموعة جمل وعبارات جميلة ومنمقة لا تغني عن شيء ، فيها الكثير من الوعود وليس فيها أفاق والتزامات بالتنفيذ .أتسائل مرارا: لماذا الدبلوماسي العربي دائما ينزع إلى القبول بالابتعاد عن القضايا التي تهم مصالح العرب ويشارك في الملتقيات التي لا تعود بأي نتيجة وهو يعرف ذلك مسبقا؟ فعندما ننظر إلى الملف النووي الكوري الشمالي(مثلا) كجزء من المقارنة، نجد أن دولتين اثنتين من أقرب المقربين للولايات المتحدة الأمريكية (اليابان وكوريا الجنوبية) ،كانتا الأكثر صلابة من كوريا الشمالية نفسها حيال الحوار الذي فتح لأول مرة بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية حول الملف النووي ،كانتا تقولان للولايات المتحدة الأمريكية، إذا ما حصلت أي حرب مع كوريا الشمالية وكانت هناك مخاطر نووية أو أي مخاطر أخرى ، فنحن من سيكون أول الضحايا ، لذلك يجب أن نعرف كل ما يجري ونساهم خطوة اثر خطوة في إيجاد الحلول وتفعيلها. وعلى لساس هذا الموقف الواضح والصريح من قبل اليابان وكوريا الجنوبية ، لم يبدأ الحوار الأمريكي- الكوري الشمالي، إلا بعد أن تم الاتفاق على تشكيل اللجنة السداسية التي ضمت اليابان وكوريا الجنوبية بالإضافة إلى الولايات المتحدة وكوريا الشمالية والصين وروسيا. وحتى في موضوع الملف النووي الإيراني ،نرى أن المباحثات التي جرت ضمت العديد من الدول الأوربية وغيرها ،برغم أن الموضوع يدور في إطار التخصيب ومحاولات من هذا النوع وليس في أطار وجود أسلحة نووية، فالحوار مع الولايات المتحدة الأمريكية والمنظمة الدولية للطاقة الذرية بشان الملف النووي الإيراني فتح عن طريق ثلاثة دول أوربية ، ولكن العرب وفيما يخص قضاياهم وبخاصة قضية العراق ،يتصرفون وكان الموضوع لا يعنيهم،ويتعجب المرء وهو يرى هذه السلبية في التعاطي مع قضايا مصيرية تهم حاضرهم ومستقبلهم.حتى داخل الجامعة العربية تعاملوا مع العراق وكأنه دولة موجودة على القمر وليس في ظهرانيهم . كان من المفروض أن

تكون هناك رؤية وخطوات متفق عليها ،وبما يمهد جديا للتباحث مع كل الإطراف العراقية لمساعدتهم في تدبير أمور بلدهم بعيدا عن التدخلات الخارجية ،وبما يمهد جديا (أيضا)للتباحث مع جيران العراق والأطراف الدولية بهدف سامي جدا يتلخص في إقناع الجميع بضرورة إنقاذ العراق لان في ذلك مصلحتهم.كان الأمر يتطلب ترتيب البيت العربي فيما يخص التعامل مع العراق بشكل جدي وواضح ،وبما يؤمن المصلحة العليا للشعب العراقي بكل طوائفه وقومياته ، فالواقع العراقي واقع خاص يجب أخذه بعلمية وبخلق نوع من الروح في التعامل ، تجعل العراقيين بعد فترة يتذكرون بالخير هذه المبادرات، في وقت كثرت فيه السكاكين من حولهم وكثرت السكاكين ضد بعضهم .

العرب وجامعتهم

«لقد تعامل العرب داخل الجامعة العربية مع العراق وكأنه دولة موجودة على القمر وليس في ظهرانيهم».. هكذا قالها بمرارة السفير مختار لماني وهو يتحدث عن تقصير العرب إزاء محنة العراق والعراقيين . واستذكر فيما بعد، تلك الأيام التي كان قد التقى خلالها بأعداد كبيرة من العراقيين ، الذين كانوا يأتون إلى مقر ممثلية الجامعة العربية في (المنطقة الحمراء) في بغداد معربين عن استغرابهم واحتجاجهم على كون العرب (أهلهم)، تركوا العراق والعراقيين في وسط هذه المحنة وهم يسبحون في برك دمائهم من دون أن يمدوا لهم يد العون، وكأن العراق ليس منهم والعراقيين ليسوا من دمهم ولحمهم ،ونسوا ما قدمه العراق للقضية الفلسطينية، ولكل القضايا العربية من أيام الاستعمار في شمال إفريقيا، وفي كل المحن والمواجهات التي كان العرب طرفا فيها .

لقد شكلت مواقف العرب إزاء العراق جانبا مهما وأساسيا من (غلالة الحزن) التي ارتدتها أيام السنة التي قضاها السفير مختار لماني في العراق وغلفت كل حواسه. وهي مواقف خزنت ذاكرة السفير الكثير من تفاصيلها وأحداثها ،ومنها ما حصل في اجتماع اللجنة الوزارية العربية المكلفة بمتابعة الشأن العراقي المؤلفة من (١٢) وزير خارجية عربي ،والذي عقد يوم الخامس عشر من كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٦ في مقر الجامعة العربية في القاهرة، وكان السفير مختار لماني قد دعي لحضوره(باعتباره سفيرا للجامعة في العراق ورئيسا لبعثتها في بغداد ومكلفا بمشروع الجامعة الخاص بالوفاق بين العراقيين). عن ذلك الاجتماع وعلاقته

بالمواقف العربية إزاء العراق،يقول السفير مختار لماني :

-لقد مثل ذلك الاجتماع (الذي عقد في مقر الأمانة العمة لجامعة الدول العربية في القاهرة) وما حصل فيه ، النقطة الحاسمة والفاصلة بين استمراري في مهمتي كسفير للجامعة العربية في بغداد وبين الانسحاب من المهمة. ففي ذلك اليوم (١٥/ ١٢/ ٢٠٠٦) كان علي أن احضر في الصباح اجتماعا مصغرا رأسه السيد الأمين العام للجامعة العربية (عمرو موسى)،لغرض الإعداد لجلسة اللجنة الوزارية العربية المكلفة بالشأن العراقي التي كان مقررا عقدها في الساعة الخامسة من عصر اليوم نفسه ، البعض في الاجتماع المصغر كان يرى أن يتم إعداد بيان يشير إلى أن اللجنة الوزارية العربية المكلفة بالشأن العراقي، تتابع الحال العراقي باهتمام وتطالب الأطراف العراقية بالعمل والتعاون المشترك وما إلى ذلك من عبارات روتينية، طالما تعودنا على سماعها من دون أن يكون لها أي وقع في النفوس أو أي تأثير على الأطراف المقصودة بها.كنت استمع إلى ما يقولونه وأنا ملتزم بالصمت ، وفي نهاية الاجتماع التفت إلي السيد الأمين العام للجامعة العربية وسألني عن رأيي ، فقلت له أن ما تحدثتم به في هذا الاجتماع بعيد كل البعد عن واقع الحال في العراق وما يحتاجه العراقيين ، أنهم ليسوا بحاجة إلى بيانات ، أي كان نوعها (دينية سياسية اجتماعية) ، فهناك في العراق قتل وتهجير قصري وانفجارات ودماء تسيل، المجتمع العراقي يتعرض لضرب شديد في العمق ، هناك محاولات حثيثة لتشتيت المجتمع العراقي وتمزيق نسيجه.فبدلا من البيانات والتصريحات وإضاعة الوقت وهو ثمين جدا بالنسبة لشعب يتعرض لأقسى وأبشع محنة،لماذا لا تعقد قمة استثنائية خاصة للعراق ؟ ، أنا لا أستطيع أن افهم هذه اللامبالاة التي يواجه فيها العرب وضع العراق الكارثي، شعب العراق يمر بظروف غاية بالقسوة ربما لم يمر بمثلها شعب من قبل ،ونحن لا نكلف أنفسنا عقد قمة استثنائية يمكن أن تخرج بنتائج تسهم في

انقاد العراق وأهله.

السفير مختار لماني يصف حديثه في ذلك الاجتماع ، بأنه أشبه بالانفجار الذي لابد أن حصل نتيجة تراكمات سنة كاملة .ويذكر أن السيد الأمين العام للجامعة العربية (عمرو موسى) رد عليه بالقول: أن هذا كلام خطير. بعد أن افتتح عصر اليوم اجتماع اللجنة الوزارية الخاصة بالعراق ،سأعطيك الفرصة كاملة للحديث عن كل ما تراه مناسبا من حلول للموضوع العراقي.وهكذا انتهى ذلك الاجتماع على أمل اللقاء بعد ساعات قليلة في اجتماع وزراء الخارجية العرب المكلفين بمتابعة الشأن العراقي ، لكي أضعهم أمام الصورة الحقيقية للوضع في العراق وأطالبهم بالنهوض بمسؤلياتهم لمواجهة كارثة تكبر وتتعمق أثارها المدمرة في كل لحظة تمر ،من دون حلول ناجعة ومن دون أن تمتد خراطيم المياه، وفي المقدمة منها الخراطيم العربية لإطفاء النيران المشتعلة قبل أن تحيل كل شيء في العراق إلى رماد .

في الساعة الخامسة من عصر يوم ١٥ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٦ ، وفي القاعة الكبرى المخصصة للاجتماعات في مبنى الجامعة العربية في القاهرة ، افتتح السيد الأمين العام لجامعة الدول العربية اجتماع وزراء الخارجية العرب الذي يمثلون اللجنة الخاصة بمتابعة الشأن العراقي ،الذين كانوا قد حضروا قبل ذلك مأدبة غداء لم احضرها ولا أدري ما حصل فيها من حوارات واتفاقات . وبعد أن أكمل السيد الأمين العام للجامعة العربية كلمته ، كنت أتوقع أن تتم دعوتي إلى المنصة للحديث باعتباري سفير الجامعة في العراق والمبعوث من قبل كل الحاضرين والغائبين من العرب بوجوب قرار قمة عربية ، إلى العراق لتفعيل الدور العربي والمساهمة في إيجاد حلول للمحنة العراقية ،ولابد والحال على هذا النحو أن يكون من الضروري أن يصر الجميع على معرفة ما لدي إزاء العراق وكنت قادما للتو من هناك للمشاركة في الاجتماع.لكنني فوجئت بان الأمور تسير على عكس ما تم الاتفاق عليه في الصباح ،

حيث راح كل وزير يقول كلمة تشبه تماما ما سبق وإن ثرت عليه في اجتماع الصباح،ثم صار الاتجاه لإعداد بيان وعقد ندوة صحفية،ولم يفكر احد منهم أن يدعوني للحديث عن الوضع العراقي الذي يجتمعون لأجله ، وأنا المكلف من قبل الجامعة بتقرار من قمة عربية بهذا الموضوع.

في تلك الأثناء غادرت قاعة الاجتماع والغيض يتملكني وكلي تذمر مما حصل ، فقد كنت أتمنى أن يخرج الاجتماع بمبادرة لعقد قمة استثنائية خاصة بالعراق فقط ، ويتم فيه تشكيل لجنة ثلاثية من ثلاثة ملوك أو رؤساء، وتعطى هذه اللجنة تفويض كامل للتحدث باسم العراق فيما إذا صار هناك مؤتمر دولي أو إقليمي، فحديث هذه اللجنة باسم العراق مع إيران وتركيا (مثلا) ستكون له قوة وثقل كبيرين . ولا يمكن اعتبار تشكيل هذه اللجنة سابقة تحتاج إلى وقت وإعداد وتهيئة لم يسبق التحضير لها ، حيث سبق للدبلوماسي العربي المعروف (الأخضر الإبراهيمي) أن ذهب إلى لبنان في محاولة لإيجاد حلول للوضع اللبناني ، ووجد أن لا فائدة من الأحاديث والزيارات من دون ثقل سياسي ومن دون دون مساندة جدية وفاعلة من العرب ،إلى أن عقدت قمة في الدار البيضاء خاصة بلبنان وشكلت بقرار منها لجنة ثلاثية[1]، فصار هناك تعامل وخطوات ،ولم تمض أكثر من أربعة أشهر حتى عقد

(1)وضع مؤتمر القمة العربي الطارىء في الدار البيضاء(٢٣-٢٦ايار/ مايو١٩٨٩)،آلية للوصول إلى تسوية للصراع اللبناني،تمثلت في تشكيل لجنة ثلاثية تضم ملوك ورؤساء ثلاثة دول عربية هي :المملكة العربية السعودية والمملكة المغربية والجمهورية الجزائرية،مهمتها الأساسية هي القيام بالاتصالات والإجراءات التي تراها مناسبة بهدف توفير المناخ الملائم لدعوة أعضاء مجلس النواب اللبناني لمناقشة وثيقة الإصلاحات السياسية وتشكيل حكومة وفاق وطني. اللجنة الثلاثية عينت الدبلوماسي الأخضر الإبراهيمي مندوبا عنها وأصدرت بعد زيارات للإبراهيمي واتصالات ومباحثات طويلة ،قرارا أعلنت فيه وقف إطلاق النار في لبنان وتأليف لجنة أمنية برئاسة الأخضر الإبراهيمي للإشراف على تنفيذه، ودعوة النواب اللبنانيين لحضور مؤتمر يعقد في مدينة الطائف في المملكة العربية السعودية للاتفاق على إنهاء الصراع في لبنان.

مؤتمر الطائف[1]، وبالرغم من المساوئ وما قيل من ملاحظات وانتقادات ، إلا أن ما حصل آنذاك كان فاعلا في إنهاء الحرب الأهلية اللبنانية.وقد قلت هذا الكلام بكل وضوح في دولة الإمارات التي التقيت سفيرها في الجامعة العربية عندما كنت خارجا من قاعة اجتماع وزراء الخارجية العرب يوم الخامس عشر من كانون الأول / ديسمبر٢٠٠٦، حيث قال لي : بأنهم في الإمارات يريدون أن يسمعوا رؤيتي بشان العراق ، فوافقت على تلك الدعوة كجزء من محاولاتي لإسماع صوتي وما أريد قوله بصدد مصلحة كل العرب وليس العراق فحسب، إلا أن الإخوة في الإمارات كانوا مثلما ظهر لي ، يريدون أن يسمعوا فقط وليس هناك أي مبادرة للقيام بشيء محدد بهذا الخصوص.

الحقيقة أن ما جرى في ذلك الاجتماع ، كان وراء قراري بترك المهمة لأني لمست فعليا أن لا فائدة ترجى من كل ذلك وليس هناك أمل في حصول أي شيء ايجابي . فالحديث عن ما حصل فيه كمثال معبر عن تعاطي العرب مع الهم العراقي والمحنة العراقية الكبيرة،يمكن أن يوضح شعور القهر بالنسبة للمواقف العربية ،ويبن شكل غلالة الحزن التي ارتدتها أيامي وأنا في العراق والتي سكنت روحي مثل جرح نازف وغلفت ذاكرتي.فهل يعقل وأنا السفير العربي الوحيد آنذاك في العراق، وقد بعثت إلى هناك بقرار من قمة عربية، وكنت الوحيد بين المسؤولين العرب على اتصال بكل الأطراف العراقية (باستثناء طبعا من له مشروع بأجندات تتجاوز العراق)، ولا يمضي أسبوع من دون أن يأتيني أو يتصل بي احد السفراء الأجانب في العراق للحديث عن المشاريع المطروحة على الساحة العراقية ، ودائما ما يسألوني

(1)مؤتمر عقد في مدينة الطائف في المملكة العربية السعودية،وتم التوصل فيه إلى اتفاق بواسطة المملكة العربية السعودية في ٣٠ايلول/ سبتمبر ١٩٨٩أنهى الحرب الأهلية اللبنانية، حضره ٦٢ نائباً لبنانياً من أصل ٧٣، ٨ من الذين لم يحضروا الاجتماع لم يرتبط تغيبهم بأسباب سياسية، بينما ارتبط اسم ٣ نواب بالمقاطعة لأسباب سياسية

عن الحلول التي يمكن اتخاذها لمواجهة الوضع العراقي والأفكار التي يمكن أن تسهم في تحريك الأوضاع بالاتجاه الصحيح وغير ذلك الكثير مما يتعلق بالمحنة العراقية، فضلا عن كوني خلال السنة التي قضيتها في العراق ، تلقيت نحو عشر دعوات من عواصم غربية مختلفة للتباحث بالشأن العراقي، وذهبت وقابلت ارفع المسؤولين وتحدثنا عن الكيفية التي يكون عليها المشروع العراقي ،أما العرب الذين أرسلوني إلى العراق ، فلم يكلفوا أنفسهم حتى سماع صوتي ،ولم يطلب احد منهم أن يلتقي بي ، كنت اسأل نفسي مرارا : أنا في العراق لماذا ؟ ما الذي افعله هنا ؟

*الأمانة العامة لجامعة الدول العربية وكما هو معروف لا تملك الصلاحية لاتخاذ أي قرار أو التوجه في الطريق الذي تراه الأحسن .هل كنت ترى أنها قادرة على فعل شيء ولم تفعل ؟

-هذا الكلام يمكن أن يكون صحيح وغير صحيح ، لان واقع الحال يؤكد أن الأمانة العامة لجامعة الدول العربية لا تملك صلاحية اتخاذ القرارات ،ولكن هذا لا يمنع من أن تقوم الأمانة العامة بالمبادرة في تحميل الدول العربية المسؤولية عن كل ما حصل ،ولماذا لم تطالب الأمانة العامة بعقد قمة عربية استثنائية بشان العراق ،ولها سوابق في ذلك،وقد طالبت من موقعي كسفير للجامعة في العراق بهذا الموضوع مرات عديدة ولم أجد استجابة.

الحوار .. التفاوض

في استعاداته لطبيعة اللقاءات التي جمعته بالعراقيين في أيام تلك السنة العصيبة التي عاشها في المنطقة الحمراء ، يذكر السفير مختار لماني أن فهمه وقناعته بطبيعة مهمته دفعته لتقسيمها إلى مرحلتين ، الأولى أطلق عليها تسمية الحوار مع العراقيين والثانية هي التفاوض مع العراقيين ومساعدتهم في التوافق فيما بينهم. ويؤكد بان الله قد وفقه ونجح في المرحلة الأولى ولم تتاح له الفرصة للنجاح في المرحلة الثانية.ويذهب اللماني في شرح رؤيته لطبيعة كل مرحلة والخط الفاصل بينهما، بالقول : الحوار يستدعي الاستماع إلى كل الأطراف بدقة ومحاورتهم ،ثم بلورة كل الحوارات والانطلاق منها إلى مرحلة التفاوض التي تتطلب إمكانيات كبيرة جدا وأولها الإمكانات السياسية.عندما يتصدى المرء لمهمة التفاوض في مناخ محتقن وعلى أرضية تسيل فيها الدماء ويغلفها الالتباس، لا يفترض أن يعتقد بان مجرد أن لديه رصيد جيد من العلاقات مع كل الأطراف وان في استطاعته قول الكلمة الطيبة ستنفتح أمامه أبواب النجاح .نعم ذلك مطلوب لكنه بلا تأثير، وأنت تحاور أناس ابعض منهم لديه أحقاد وهناك احتقان ومصالح متضاربة وتعقيدات ، المهم أن تكون لديك في التفاوض أوراق يمكن أن تستعملها للضغط أو للإغراء ،وبالتالي يمكن دفع الأطراف إلى تقديم التنازلات وبما يؤدي إلى حضور فرص التوافق بين كل الأطراف ، وهي عملية لا تجري بين ليلة وضحاها ، فالواحد منا لا يملك عصا سحرية يغير بها الأمور وفقا لما يريد.

أن الانتقال بقطار العراقيين من رصيف الحوار إلى رصيف التفاوض ، كان

يتطلب، أولا وضع سكة تصل بين الرصيفين، وإقناع العديد من الركاب بعدم مغادرة القطار،ثانيا . لكن مثل هذا العمل الصعب والدقيق لم توفر له الإمكانات ولم يجد الدعم(وفقا للسفير مختار لماني) ،على الرغم من أنه كان يرى ضوءا في نهاية هذا النفق ، يتطلب أشياء من الرؤية السياسية ليظل مشتعلاً،وقد لمس أن كل الأطراف العراقية كانت تبدي عدم ارتياحها الشديد للوضع في العراق، فالكل يعلم أنه وضع شائك ويجب تغييره ،وإن اختلف تفسير هذا الوضع الشائك لدى كل طرف. لكن السؤال الذي يختلفون عليه هو : كيف يتم التغيير ؟.

فإذا كان القطار موجودا والسكة ممدوة بين هذا الرصيف وذاك الرصيف، وكان السفير مختار لماني قد نجح في قيادة القطار في شوطه الأول إلى محطة الحوار وراح يهيء الإمكانات ويحضر الأجواء للانطلاق إلى المحطة الأخرى(التفاوض) ، فما الذي جعل (الحوار) محطة أخيرة سواء بفرض الشروط أو بمغادرة القطار والركوب بآخر يتحرك باتجاه معاكس أو حتى بالعمل على رفع السكة التي تصل بين المحطتين ؟

السفير مختار لماني أشار بأصابعه إلى المسؤولين عن كل ما حصل لقطار العراقيين الذي كان يحاول الوصول به إلى محطة التفاوض والتوافق ، قائلا :

-كان مؤتمر القاهرة (١٩-٢١تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٥)، الذي جمع نخبة من العراقيين الذين يمثلون كل الأطراف المختلفة ، بداية من بدايات الحوار والتفاوض الحقيقي معا ،برغم أن المصالح والتوجهات متناقضة بين الأطراف (المؤيدة للعملية السياسية والرافضة لها)، إضافة إلى ما كان من احتقان ومعارك واتهامات ومواقف ، إلا أن ما تحقق في ذلك المؤتمر وبغض النظر عن تحفظ أو اعتراض هذا الطرف أو ذاك على هذه النقطة أو تلك، كان مشجعا للمضي في الطريق والوصول إلى محطة أخرى، أكثر وضوحا وأكثر قدرة على منح كل الأطراف

الفرصة للتقرب من بعضها والقبول بالتفاوض وصولا إلى التوافق، ولعل من بين العوامل المهمة التي شجعت على الوصول إلى مثل هذه النتيجة ، هي أن كل الذين حضروا إلى اجتماع القاهرة الأول جاءوا (كأطراف) تمثل من تمثله وتدرك إن العراق لا يمكن أن يكون حصة لطرف واحد أو بعض الأطراف دون الجميع. وبين وقت انعقاد هذا المؤتمر وبين وقت ذهابي للعراق ، كان نحو ستة اشهر قد مرت، تغيرت فيها أشياء كثيرة ، فالذين في داخل العملية السياسية كانوا قد مرروا دستورا جديدا للعراق ضمنوه كل ما يؤمن مصالحهم ويقطع على الآخرين الطرق للمشاركة في صناعة حاضر العراق ومستقبله(مثلما كانت ترى الأطراف المناهضة للعملية السياسية)، ثم اجروا انتخابات وأعلنوا عن قيام مجلس للنواب ومن ثم قاموا بتشكيل حكومة.وبالتأكيد فان كل هذه المتغيرات كان لابد أن تنعكس بنحو واضح على المواقف السياسية ، بل أكثر من ذلك أن رئيس الوزراء (نوري المالكي) راح يعلن أن لديه مشروع للمصالحة الوطنية، متجاهلا تماما مشروع الجامعة العربية وكل ما جرى في مؤتمر القاهرة من حوار وتفاهمات ووعود واتفاق على المضي لعقد مؤتمر اخر يكمل مشوار الحوارات والتفاوضان التي بدأت.

إن موقف (نوري المالكي) والجهات التي تقف خلفه ، كان عاملا أساسيا في جعل مؤتمر القاهرة محطة أخيرة للحوار بين كل الأطراف العراقية،حيث رفضوا أن يتعاطوا مع أي مؤتمر أو لقاء جديد(بعد مؤتمر القاهرة) يحسبوا فيه على أنهم طرف من كل الأطراف العراقية ،بل يجب أن يتم التعامل معهم على أنهم حكومة، وان من هم خارج العملية السياسية ومناهضين لها ،ليسوا سوى بعض مجموعات معارضة للحكومة وللدولة العراقية، فالقطار (وفقا لرؤية نوري المالكي ومن معه في العملية السياسية) قد انطلق ولا يمكن العودة به إلى المحطة الأولى . كانوا في الحقيقة قد استسهلوا العملية في البداية ، وعندما عقدوا عدد كبير من المؤتمرات والندوات

والتجمعات مع العشائر ورجال الدين وغيرهم ،والتي الصقوا بها جزافا عبارة (المصالحة) ، وجدوا أن الحال ليس مثلما كانوا يريدون ،فقد اختلفوا حتى فيما بينهم وقاطعت اجتماعاتهم أطراف وجماعات موجودة في مجلس النواب،فإذا كانوا قد فشلوا في إقناع الأطراف والجهات المحسوبة عليهم ، فكيف سيستطيعون إقناع الأطراف المعارضة أساسا للعملية السياسية؟. لقد كانت ولازالت، لدي قناعة راسخة في أن الحوار بين كل الأطراف العراقية بدون استثناء وبشكل موضوعي وحقيقي وصادق ،وفي إطار من المواطنة المخلصة ،لابد أن يفضي إلى تفاوض عراقي_عراقي يمهد الطريق بالتأكيد لخروج العراق من محنته الكبيرة، وإلا فان العراق بغياب الحوار الحقيقي والصادق بين العراقيين، لن يشهد أي تغيير حقيقي في كل المجالات وكل الأوضاع ،وفي مقدمتها الوضع الأمني ،وان حصل بعض الهدوء الذي يسمونه (أمنا مستتبا) فانه بالتأكيد ليس إلا وضع مرحلي وهش يمكن أن ينتهي في أي لحظة .فليس من الأمن أن يتم تحويل مدينة بغداد (مثلا) إلى عدد كبير من الكانتونات وفقا لأهواء طائفية وعرقية ،وكل كانتون محاط بجدران كونكريتية عالية وله مدخل واحد ،وأسهل على المرء أن ينتقل من كانتون في بغداد إلى نيويورك من أن ينتقل من كانتون إلى آخر في بغداد. الوضع شاذ جدا ، والصحيح أن تعاد المدينة مفتوحة للجميع كما كانت قبل الاحتلال عام ٢٠٠٣،ولكي تنجح في ذلك لابد من بناء مشروع سياسي يضم كل العراقيين، لا أن تأتي بمشاريع وخطط تلبي رغبة الأمريكيين. فعندما حصل موضوع الصحوات (على سبيل المثال) [1]، ظهر أن الإدارة الأمريكية سعت للتفاهم والتقرب من بعض

(1) جاءت الحاجة لتشكيل الصحوات بعد إدراك الأدارة الأميركية أن قواتها العسكرية غير قادرة على التصدي لهجمات المقاومة في العراق، خاصة بعد أن فشلت في تحقيق النجاحات المرجوة بعد تدمير مدينة الفلوجة في تشرين الثاني/ نوفمبر٢٠٠٤ لذلك سعى الأمريكان إلى ايجاد ما يعرف(بالصد النوعي). ولم تكن الصحوات في العراق هي التجربة الأولى في التاريخ، ففي فيتنام شكل=

العشائر (السنية) خدمة لمصالحها هي ومحاولة لتجنيب نفسها خسائر إضافية وتوفير وضع أمني أكثر رصانة لقواتها ، فيما كانت حكومة المالكي تقف بالضد من هذا التوجه الأمريكي ،لانها ترى العملية بأنها تسليح لمكون طائفي آخر .

والحقيقة أن هذا اللبس وهذه الرؤية المختلفة للصحوات يعود إلى أن الموضوع لم يصنع في البيت الداخلي العراقي ووفقا لحاجات وضرورات تخدم العراقيين أولا وأخيرا، فالمفروض أن هذه التفاهمات تكون بين العراقيين أنفسهم لكي تنجح.

إن من بين أهم المشاكل الكبيرة جدا التي وجدت المجتمع العراقي يعاني منها ، هي التشرذم وكثرة التشققات وبنحو خاص في الناحية السياسية،فالكل يعاني من هذا الوضع سواء داخل قوى العملية السياسية والحكومة أو الجهات المعارضة. ما أخشاه فعلا أن يكون الأمريكان قد وصلوا إلى خطة تقوم على ضرب طرف عراقي بطرف عراقي آخر (عرقنة الحرب في العراق)،ثم يحاولوا أن يظهروا بأنهم الحكم

=الأميركيون فيها بعد هجوم الفيتكونغ في مايو ١٩٦٨،ما أسموه بالقرى الأستراتيجية التي بلغ عددها ١٦ ألف قرية، وامتدت على طول الحدود الفاصلة بين فيتنام الجنوبية والشمالية، وعمل الفلاحون والمقاتلون الفيتناميون على إفشالها خلال سنتين.أما في فلسطين فقد أطلقوا عليها تسمية «روابط القرى» وجاءت على مرحلتين، الأولى بدأت في الخليل عام ١٩٧٨ والثانية تم تأسيسها من جديد عام ١٩٨١ من قبل شارون عندما كان وزيرا للدفاع.وتصدت لها فصائل المقاومة الفلسطينية وأفشلتها.أما في الجزائر فإن الفرنسيين شكلوا ما أطلق عليه «الحركيون» وهم الجزائريون الذين ساندوا الجيش الفرنسي ضد المقاومة الجزائرية.ووصل عدد هؤلاء إلى ما يقرب من مائتي ألف جزائري، بينهم الكثير من الرتب العسكرية العالية، وقد ألحقوا الكثير من الأذى بالمقاومة الجزائرية، الأ أنهم ما زالوا يوصمون بأنهم خونة.ويتعامل الفرنسيون مع أحفاد هؤلاء داخل فرنسا بكثير من الأهانة والاحتقار، كما أن الحكومات الجزائرية المتلاحقة، رفضت عودة هؤلاء إلى الجزائر، رغم مرور عشرات السنين على هروبهم إلى فرنسا.وفي يوم استقلال الجزائر ١٨/ ٣/ ١٩٦٢ وصف الجنرال ديغول «الحركيون» بكلمة شهيرة قال فيها : «هؤلاء لعبة التاريخ، مجرد لعبة».

بين هذه الأطراف.ففي ظل غياب أي حوار عراقي _عراقي وغياب أي إيمان حقيقي بالمواطنة العراقية وتفعيل إي مصلحة ضيقة ، لابد أن تتوفر الأرضية والمناخ الملائمين لنجاح مثل هذه الخطط الخبيثة،فكل الكتل السياسية في العراق تتكلم عن المشروع الوطني، وكلها تستعمله لتحقيق أهدافها الخاصة ، لكن من يعمل حقيقة للمشروع الوطني ومصلحة المواطن والوطن ،قليل جدا.ففي فترة من الفترات (مثلا) كان هناك تحالف خماسي بين القوى المنضوية في العملية السياسية والحكومة، وعندما وجد البعض منهم أن مصالحه وأهدافه لم تتحقق على النحو الذي كان يأمله من تحالفه هذا ، انسحب ومن دون أن يكون لمصلحة الوطن في كل ذلك أي وزن أو اعتبار. ثم صار هناك تحالف ثلاثي مابين الحزبين الكرديين والحزب الإسلامي ، الأمر الذي دفع بـ لأحزاب والقوى الأخرى للوقوف ضد هذا التحالف وبدأت الاتهامات والانتقادات توجه مثلا للحزبين الكرديين على مواقف كان المنتقدين قد سبق (عندما كانوا متحالفين مع الحزبين الكرديين)أن أشادوا بها أو سكتوا وغضوا الطرف عنها. وهذا يؤكد أن كل القوى السياسية العاملة على الساحة العراقية ، هي قوى هشة، واتفاقاتها وتحالفاتها هشة هي الأخرى ، وليست مبنية على مصالح وطنية ، الأمر الذي يؤدي إلى الحكم بان العملية السياسية ليس لها أمل في الحياة ،وهي منخورة من الداخل وستنهار حتما.أما الولايات المتحدة التي تحتل العراق،و التي صممت العملية السياسية على هذا النحو وتتحكم بكل شيء ،فلا تهمها إلا مصالحها والطرق التي تؤدي إلى تحقيقها،حتى وان كان ذلك على حساب الأطراف التي تعتبر نفسها حليفة لها ، ولا ترى الولايات المتحدة في تعاملها وفي سياساتها ما يعيب عند ارتكابها للأخطاء، حتى وان جرها ذلك إلى تقديم خسائر وتحمل كلف عالية وصناعة كارثة فعلية للآخرين ،مثلما حصل فعليا في احتلالها للعراق .وفي هذا يجب العودة إلى التاريخ

للتذكير بمقولتين لشخصين من أكثر من فهموا التاريخ السياسي المعاصر وتعاملوا مع الأميركان، المقولة الأولى (ونستون تشرشل) رئيس وزراء بريطانيا السابق، والتي جاءت في مذكراته عن الحرب العالمية الثانية ،وكان حليفا قويا لأمريكا في صراعهم ضد النازية، فبعد أن وضعت اخرب أوزارها ، قال عن الخلافات الكبيرة التي كانت قائمة بينه وبين الأمريكيين:(من تعاملي مع الأمريكيين تعلمت أن أمريكا قبل أن تفعل الشيء الصحيح لابد أن تجرب فعل كل شيء خطأ) ، والمقولة الثانية للرئيس الفرنسي السابق الجنرال ديغول الذي قال في مرة عن تلك الفترة أيضا : (أن أمريكا في سياستها الدولية أشبه بوضع فيل في محل للبورسلين والتحف) ، فضلا عن مقولة ثالثة لرئيس وزراء كندا السابق بيير ايليوت تروردو(١٩٨٠-١٩٨٤) الذي كان يتحدث عن علاقة الولايات المتحدة ببلده، وهما يشتركان بحدود تمتد الأف الكيلومترات، وكان قد سمع لوما على مواقف معينة لكندا وجد فيها البعض محاباة لأمريكا : (وضعنا كوضع نملة تنام بجانب فيل ، فإذا تحرك فانه يمكن أن يقتلها وهو لا يشعر حتى بأنه قتلها) .

إن وجودي في العراق واتصالي بكل القوى والطوائف والمكونات العراقية لأخرى،جعلني أرى والمس بوضوح طبيعة العلاقات السائدة بين القوى السياسية في العراق، حيث وجدت أن كل طرف فيها يبحث عن تحالفات خارجية ضد لطرف الأخر، ولا يسعى إلى تحسين علاقاته مع كل الأطراف وصولا إلى تحقيق لوفاق الداخلي بين الجميع، فالكل يتجاهل حقيقة أن الوفاق هو الذي صنع لعراق العظيم منذ القدم ،وان ارض العراق كانت قطعا وعبر التاريخ ، أرض لفسيفساء ، وان العراق كان له دور كبير ،يمتد أحيانا كثيرة ليشمل العالم ،وان ظهور مئات الأنبياء في هذه المنطقة ليس مجرد صدفة. ويبدو أن الجيل الحالي من لسياسيين في العراق، بعيد عن فهم الجزء التاريخي والمغزى الفلسفي لهذه الدروس

وكيفية الاستفادة منها، فمن السهولة أن تبحث عن أي طرف خارجي مستفيد(سواء كان هذا الطرف أمريكا أو إيران أو غيرها)،وتستقوي به ضد الطرف الأخر، وهذه خطأ يشترك فيه الجميع ، وهم يحاولون جر الشعب في هذه الدروب الموحلة ، وقد وصل الحال بفعل القيادات التي تلعب دور الرائد في ذلك ، إلى حد جر البعض إلى ممارسة القتل والتهجير والتهميش والإلغاء. فالمواطن العراقي الذي كان يشتري بيتا لا يختار جاره العراقي،ولا يفكر أن كان مسيحيا أو مسلما،سنيا أو شيعيا،أو كرديا أو تركمانيا،وفجأة بعد عام ٢٠٠٣ وجد البعض نفسه مجبرا على ترك بيته،وغيرهم وجدوا أنفسهم في مواجهة ذات المصير، حتى اخذ الوضع بعدا خطيرا ، كنتيجة فعلية للصراعات السياسية، التي 'ستعمل كل طرف فيها أدوات الطائفية أو العرقية أو الدينية، لتحقيق مكاسب سياسية ،ووحده الشعب العراقي من يدفع الثمن، والذي كان من المفروض أن يسعى الجميع إلى وحدته، والنظر إلى التعدد الذي يحتويه، على انه مصدر غنى للجميع وليس مصدر فرقة وضعف، ولذلك تبقى الخلافات دائما سياسية ، وإذا انتهى الاحتلال فان العراق بالتأكيد سيعود معززا مكرما ، من خلال شعور العراقيين بعراقيتهم وليس بطائفيتهم أو عرقهم.

فعلى الرغم من كون الغالبية الساحقة من الشعب العراقي هم من العرب والمسلمين ، وعلى الرغم من كوني سفيرا للجامعة العربية في العراق ، إلا أن ذلك لا يعني إني فضلت العرب على فئة أخرى من الشعب العراقي ، فالمواطنة العراقية كانت هي الأساس عندي ، وكنت ولا أزال أجدها المظلة الجامعة لكل الهويات العراقية الأخرى ،وبغير هذه المظلة وحرص العراقيين على وجودها والحفاظ عليها ، لن يكتب للعراق أن يخرج من محنته مهما طال الزمن ومهما تعددت الوسائل والخطط، إذا إنها ستبقى بالمحصلة خطط ووسائل ترقيعية ما تلبث أن تفقد قدرتها على البقاء والوفاء بما يفيد العراقيين ويضمن استقرار بلدهم .

وكنت في كل اللقاءات والاتصالات مع كل الأطياف العراقية ، أوكد بنحو عملي على كوني ضد أي مفهوم مجتزأ أو أي تخندق، فالمفهوم الأساسي لحل المشاكل العراقية يجب أن يستند إلى قناعة الجميع بالمصير المشترك . ولقد أخذت بعين الاعتبار وضع العراق ومكوناته، وكنت منفتحا على كل الأطراف في إطار سماع الجميع ،ومنذ بداية مهمتي في العراق أعلنت أن هناك ثلاثة خطوط حمراء بالنسبة ليّ، وهي :

*الخط الأول:أن طبيعة مهمتي هي عمل كل ما من شأنه إنهاء الاحتلال وعودة حرية واستقلال العراق .

*الخط الثاني : الحفاظ على وحدة واستقرار العراق .

*الخط الثالث : ضمان استمرار تواصل العراق مع المحيط العربي، مع الأخذ بنظر الاعتبار ،إن محيط العراق ليس عربيا فقط وإنما هناك تركيا وإيران (أيضا).

لقد كنت في دفاعي عن موضوع المواطنة في العراق ،انطلق من إيماني الراسخ بان التعدد مصدر غنى وقوة وإثراء وإغناء لثقافة الشعب بكل مقوماته وطوائفه. وكنت أتألم جدًا حين أجد أن حتى العراقيين (العرب) الذين وافقوا على تمرير الدستور بما فيه من سوء وتهميش وتركيز للطائفية ، كان عندهم لوم كبير على العرب ،وكانوا يقولون لي في اللقاءات التي تجمعني بهم ، أين انتم العرب وما الذي فعلتموه للعراق ، أنتم ضد العراق .وكنت أرد عليهم بسؤال : هل يمكن أن تجدوا ليّ إلا أي موضوع سياسي يكون العرب متفقين عليه. ففي الموضوع العراقي لا يوجد اتفاق بين العرب على كيفية التعاطي معه ،وإذا كانت هناك دول عربية مع الحرب ضد العراق ،فقد كانت هناك أيضا دول عربية ضدها،وعلينا جميعا أن نبتعد عن سياسة رد الفعل ،لامها ستزيد المشاكل ،وللأسف فان هذه السياسة هي التي تحكم حركة القوى والأحزاب والشخصيات السياسية في العراق .